
www.kotobarabia.com
قصص
يوسف أبو ريه
ترنيمة للدار
www.kotobarabia.com

ترنيـمة للـدار

قصــص

يوسف أبو ريه

فهرس

القســم الأول

ترنيمـــــة للـــــدار

ترنيمة للدار

في الخيمة المعتمة، حيث رقد الجند على الأسرة السود، يتصاعد لحن الحياة، خليطا من الأصوات المتباينة المتداخلة، شادي الصغير، يغني بصوت الطفل: يا حنينة يا عيني.. عيني يا حنينة.

التقطها من أفواه الصبية في عرس إحدى القريبات، ضجة المذياع في مقهى الأقرع ممزوجة بالسيمفونية الكلاسك منطلقة من مذياعي، بنداءات "عابد" بائع العرقسوس – يصلي على النبي.

وتك.. تك.. تك تأتي من غرب الدار، حيث الطاحونة العجوز تنفخ دخانها، في ملل ونواح مجهد، يغطي عليه صخب أحجار الطاولة، وزعيق الرجال يسبون الدين، ويتنخمون البصاق الذي تمطى على الجدار المقابل.

هذا هو صوت الضحى في دارنا..

أعرف المواقيت من الصوت الذي أحن إليه في المنفى البعيد.. وأنا مثقل بالذكرى، والملامح الحادة القريبة.

في الخيمة المعتمة، الصامدة للريح والشـمس القاسـية، أهرب إلى التبة العالية، أحلم. أستحضر التذكارات القديمـة، في محاولة لإخراجها فنا منسقا، يدفعه الأمل المراوغ.

على التبة، وعبر نظري الملقى علـى صـحراء النبـت الشيطاني، أرى دارنا..

نهارها يبدأ من المئذنة، تعلن للناس: أن الصلاة خير من النوم، وتسبح بمن تسمى قبل أن يتسمى.

فتهرول إليها سيقان كهلة متكسرة الخطة، تسير على وقع عصا هرمة، سابحة في ترانيم صوفية تخـرج مـن أفـواه مهشمة.

في الشارع الكبير يسير رجال ونسوة – يعالجون بقايا نوم خاطف – خلف حمير تشيل الخضر إلى أسواق المدينة.

وهناك يفتح إسحاق بابه، هو أول من يقوم مـن بـائعي الفول، وآخر من يبيع. إذا وقفت على سلم المحطة، أو علـى جسر النهر، أو بين هياكل الخشب في السوق، أسـمع يـدي الحديد تهرس الفول في الحوض العميق..

هذا الصوت عريق في أذني، يرعش القلب الحبيس..

في سني التوتر، والقلب الأمرد، كنت أسمعه مقـبلا مـن بيت فتاتي، ويدفعني عبر ضباب الصـبح للوقـوف خلـف الجدار، أرقبها فارعة قوية، على رأسها قدرة الفول، تنفـث بخارها المحموم.. ولما تعود من دكانة أبيهـا أهمـس لهـا بالكلمة التي دبرتها بالليل، أو ألقي لها بالرسالة المطوية على زهرة اختطفتها من البستان المسور بالسلك والشوك المشرع.

قطار الخامسة يقبل من الجنوب، يقف بـين الرصـيفين لاهثا، يطلق الدخان والصفارة التي تخفق لها حيطان الدور.

ترك – تحت المظلة – الجريدة والمجلة التي يسعى إليهـا بائع الأخبار، وبحرص طفولي بريء أبتاع الجريدة الأولى.. فتواجهني صورة السلطان المتحدية القبيحة، تعيـد لـ ذاكرتي ملامح من حكايات قديمة، مكثفة بالـدم، ومنتهيـة براحـة الخلاص..

الأخبار لا تسر، ما زال العالم ضـدي، حتـى الأغنيـة المترعة بالشبق لحبيب لا يوجد إلا على خيوط الأثير.

السرير يغري بالراحة والأحلام..

أعطي ظهري لموقف السيارات – صـبيانه يصـرخون بأسماء المدن البعيدة، ينفثون من أشداقهم أبخـرة الصـبح،

كذلك الجند والتلاميذ والموظفون الذين احتشدوا بالسيارة التي ذابت في الشبورة.

السرير يغري بالراحة والأحلام..

برغم وابور بائع الطعمية القوي المتفجر، وبرغم ميكروفون المسجد الذي يخبر عن موت امرأة من الحي المجاور، ربما أخفى ضجيجه صوت جنين لحظة عبوره الرحم المظلم إلى ضوء النهار المبهر.

والنوم عادة موروثة، تذكر ببدائية الإنسان.

لما أنتبه ساعة الضحى، تكون الدار ضاجة بالنور الوفير، أطرده بشيش النافذة، لأفتح الكتاب على ضوء خفيف، وأطلق موسيقى المذياع، لتأتيني الأصوات المتباينة المتداخلة، شادي الذي يغني، واحتدام أحجار الطاولة، وتكتكات الطاحونة العجوز.

أعيش بقية النهار الطويل، في انتظار الليل القصير، وينقضي يوم، ويوم، ويوم، ارتدى بزة الجندية، وأحمل الحقيبة المكتظة بالهدوم والكتب لأبدأ رحلة الصحراء، وفي الخيمة المعتمة، أو على التبة العالية، يتجدد الشوق، وتتجمر

الذكرى، وتقترب أصوات الليل والنهـار، مجهـدة بالنـداء الصعب.

نهار أبيض بعيد

دق جرس الباب مع جرس المنبه في نفس الوقت الذي حددته للقيام، كانت الغرفة باردة جدا، لم أشعل المدفأة خشية الإصابة بنزلة برد، تعطل السفر، وتهدد لياقتي، كنت أريد أن أرى كل شيء بقوة وصفاء، ولكن الشبورة واجهتني منذ اللحظة التي فتحت فيها الباب، كانت تلتف حول جسد من جاء لإيقاظي، وتنتشر كتلتها في المدخل، وفوق الأسطح، فتخفي النوافذ والأبواب والشرفات وأعمدة النور التي لم يبد منها غير بريق واهن جعل لنفسه مساحة محدودة من الضوء.

ولأنني كنت نائما بملابس السفر لم أستغرق زمنا طويلا في رفع الحقائب والهبوط إلى الشارع.

كانت السيارة كتلة شبحية تضوي بنور أحمر شرير من الخلف، وتخترق بكشافات المقدمة أستار الشبورة. حين اتخذت مكاني إلى جوار السائق ترددت في أذني أصوات الميكروفونات تؤذن للفجر في مآذن وهمية بعيدة.

في الشوارع النائمة كان يفاجئنا جسد لكلب يمشي وحيدا منكمشا على نفسه، يمرق بسرعة بعد أن قام من نومته ليتفادى الهلاك المباغت، كما كانت تفاجئنا أجساد لكهول تلفعوا بعباءات سوداء ويتوكئون على عصى غليظة وتهمس شفاههم الرطبة بأوراد الفجر.

الآن وقد استوت السيارة على الطريق المسفلت المضيء ضاعف السائق من سرعتها ذلك أن الرؤية هنا أكثر وضوحا والمساحة التي تتحرك فيها صارت أكثر اتساعا.

بعد أن تركنا مبنى المستشفى على يميننا سقطنا مرة أخرى في ظلمة صلدة من الصعب جدا اختراقها، قلت للسائق: حاول. قال: كما ترى أنا أفعل المستحيل.

كان من الجنون أن نفتح زجاج النوافذ فالبرد بالخارج لا يرحم، وبخار أنفاسنا كان يتراكم على الزجاج، فيصنع طبقة رقيقة تتواطأ مع طبقة الشبورة التي أحكمت خيمتها علينا من كل جانب.

وقفنا أكثر من مرة لنمسح الزجاج من الداخل ومن الخارج، وعاودنا المسير، ثم توقفنا قبل أن ننحرف إلى الطريق الجانبي حيث سنمر بالقرب من إحدى قرى

الضواحي، سمعنا صوت مؤذنها يتضافر مع صوت المقرئ الذي يحلق صوته من البعيد من جهة المدينة.

الشبورة تتوعدني منذ الزمن القديم، مع الخفقـة الأولـى للقلب، كنت أفتح باب الصباح فأجدها أمامي بثوبها المشغول من الدانتيل، هي مثيرة للأحلام تعيد للـذاكرة سـرير الأب بالناموسية الضافية، وتحيي في الأنف رائحته التي تفوح من موضع رأسه على الوسادة، الناموسية هابطة علـى جسـدي الصغير من الأركان الأربعة فتحلق الروح وترفـرف فـي محيطها الواسع.

أجدها على باب الصباح تحجز عني دار جدي، وحـوش الدار الكبيرة، وتخفى عن عيني بيوت الجيـران، فتـنهض الوحشة. العين التي تعيش فـي الإمكـان يسـتحيل عليهـا المشاهدة، وبيت المحبوبة هناك على ناصية الشارع.

هي الآن واقفة بزيها المدرسي تنتظر خروجي الصباحي، ومكوثي الطويل تحت العامود حتى موعـد الـذهاب إلـى المدرسة.

أجوس وحدي في البخار فيتلاشى جسدي، وتنتشر ذراتـه في الفضاء، ولا أدري هل أنا سائر على قدمي أم أني أحلـق

بأجنحة بيضاء، لأدنو من عتبة البيت فأجدها أمامي في دائرة مغلقة، دائرة تتسع لنا وحدنا، ورغم القرب واللقـاء الحمـيم تنتابني الرغبة في الفرار لا طاقة لي في الوجود وحيـدين، دون الآخرين، في وقت غير هذا أتمنى غيابهم، واللقيا التـي أحتشد لها في الحلم، لا أطيقها في التحقق، ابتسامتها مضيئة ووجهها المورد يقول هيت لـك. أغمغـم بتحيـة الصـباح والأنفاس المضطربة تنفضني، وقلبي الصـاخب يزلزلنـي، تخرج هي من الدائرة إلى خفاء الشبورة فتتلاشى، وتترك في الصدر حسرة، فألحاق لأغلاق الدائرة من جديد، أجدها أمامي تسـير، لـو أسـتطيع أن أمسـك كفيهـا الـرطبتين، لو أقترب حتى أتشمم فوح شعرها المنسدل على المريلة من الخلف، لو أنني أنتهز انغلاق الـدائرة وأقـول لهـا شـفاهة ما سطرته على الأوراق المختلسة، وتختفي مـرة أخـرى، وألحاق من جديد، ترفرف أجنحتي فوق البخار المتصاعد من الأرض ويهبط ثقل جسمي تحت السحب المتراكمة من فوق.

وأجدها الآن داخل الدائرة، تخترقنا من خـارج المحـيط أصوات الناس وكلاكسات السيارات وزمجرة القطار الواقف في المحطة التي نعبر بوابتها الحديد. فتقطر علـى رءوسـنا

حبات الندى. على الرصيف جاورتها، ودنوت رغم أطيـاف الركاب المنتظرين، سمعت الفرقعة فتأكد قرب قدوم القطار، اهتز بدنها للصوت المدوي فنطقت قـائلا: لا تخـافي إنهـا كبسولة التنبيه. وتجرأت على طلب الموعد الليلي فجـاوبتني بسهولة، والبسمة الودود لم تفارق ثغرها المضـموم، قلـت: سأنتظرك تحت الشجرة في فراندة البيت الكبير، وأسـرعت من خطوها ضامة حقيبتها السوداء إلى صدرها.

ظللت في الدائرة وحدي حتى تقوضت جدرانها بكشـاف القطار القوى، نوره أقوى من النهار، يخترق مسـام الجلـد، ويندس في الضلوع ليكشف سرها الخفي.

وقفنا خارج السيارة نستطلع المكان فلم نر شيئا من حولنا، كنا نتحسس جسد السيارة حتى لا نفقد المسافة بيننـا، قـال السائق: يمكنك التأجيل.

- كيف وقد حجزت !!

قال وهو يفتح باب السيارة: التأجيل سهل.

ملت برأسي لأمرق إلى المقعد. واحتواني دفء الداخل.

قلت: إنها تنتظرني على موعد الرحلة.

وأدار الموتور متبرما، تقدمنا عدة خطوات، كانت السيارة تمشي فوق أرض وعرة ترتفع إلى أعلى ثم تهبط فجأة فـي انحدار غير مأمون، العيون المفتوحة فقدت جدواها، وضوء الكشافات لا يكشف إلا القليل. رضينا بهذه الحركة المحدودة، وتمنيت أن يظل السائق راضيا عني وعن رحلتي حتى نجتاز هذا الطريق الترابي، ربما يكون طريق الإسفلت أكثر أمانـا، قلت له: الصعوبة هنا فقط حين نخرج للطريق العمومي ربما تتضح الرؤية.

- العمومي أكثر خطورة لأننا سنواجه كثيـر مـن السيارات.

توقفت السيارة فجأة، وهدأ صوت الموتور، فاتضـح لنـا نباح الكلاب وأصوات المآذن التي صارت أكثر قربا، فـتح الباب ليهبط إلى الأرض وعاد إلي مشـيرا إلـى الطريـق المقطوع.

- انظر لترى بنفسك.

كانت هناك قناة محفـورة مـا بـين الـزرع المـروي والمصرف الموازي للطريق، ودون أن أجيبه رحت أرفـع

الحجارة الطينية الكبيرة لأسد بها القناة، وهو من جانبه بـدأ يدك بأقدامه الحجارة، ليسويها بالأرض ليتمكن من العبور.

هي نفسها كانت تقف ورائي حين خرجنا من غرفة النوم الدافئة، فتحت باب الشرفة لأطالع الطريق، قلت لها:

- هذا موعد نزولي.

- خد بالك من نفسك الشبورة نازلة بثقلها.

لم تكن تبالغ لأنني حين نظرت لم أر شيئا البتة، وفي أيام الصيف كنت إذا سمعت انطلاقة الميكروفون تتهيأ لتسـابيح الفجر، أنخلع من حضنها لألقي نظرة على الطريق، فـأرى مصابيح المدينة تبرق من بعيد، فتزيل من قلبي وحشة الظلام والخوف من العودة الباكرة من هذا المكان النائي.

ارتديت معطفي الثقيل، قبـل أن أغلـق أزراره دخلـت بجسمها النحيل بين دفتيه لتجمعني بين ذراعيها، خطفت قبلة الرحيل. بعدها سحبت ضلفة الباب، ونزلت السلم محـاذرا، كانت الشقة المقابلة مغلقة على روائح النوم وبكـاء الطفـل الذي قرصه الجوع فقامت يده تجوس في جسد الأم الممـدد بحثا عن الثدي المكنون في دفئه.

الشبورة تجول بين العمارات المرتفعة وتقف على أول الطريق تتلاطم كتلها الكثيفة كأمواج بحر عاصف، وأنا أهمس للقلب المضطرب: تماسك.. لا بديل عن العودة إلى البيت.

عيناي عاطلتان تماما، أجعل ذراعي أمامي لأجوس كالأعمى في عماء الشبورة، دائرتي هذه المرة محدودة، فصلت على قدر هيكلي، فلا امتداد لها.

أقول لنفسي: أنت الآن كالصوفي الذي يعيش الحلول، أنا الكون والكون أنا. استحلت إلى بخار متطاير، البخار هو امتداد كينونتي.

وأسائل نفسي: هل أنا الآن في حالة العدم؟

وأرد على نفسي: بل حالة الوعي المطلق، لأنك صرت جوهرا فارق النسبي.

النباح يقترب كلما دنوت من الطريق الرئيسي، هذا الكلب الأسود أعرفه، كل مرة أحاذره، في القدوم الليلي وفي العودة الصباحية، حاولت أن أكسبه، وأحوز صداقته، ولكنه هذا النكد عصي على الترويض، إنه في حالة عداء أبدية مع البشر، وأحس أنه يدرك سري، ويبدو لي أنه عصبي المزاج

يدعى الحفاظ على القيم، وإن كان في النهاية مجـرد كلـب. إنني أخشاه أكثر من شواهد الموتى التي أتركها الآن خلـف ظهري.

صار الوصول إلى الطريق الرئيسي أمنية غير متحققـة، فهناك ربما تمـرق سـيارة أسـتأنس بنورهـا أو بصـوت موتورها، فيتأكد لي الوجود الحي للبشر الآخـرين، هـؤلاء الذين أشاركهم تلك الحياة، لا يهمني الآن أن يمر علي عابر، فتثير عودتي المبكرة من هذا المكان النـائي الشـكوك فـي نفسه.

ألمح جدران دائرتي المغلقة تتمطى، وتتباعد، قـد تنهـار مرة واحدة، فينكشف الوجود كله، الدائرة تتسع وتتسع فتدخل منها وجوه لموتى أعرفهم، عاشرتهم، وعشت بيـنهم يومـا، ورحلوا منذ عهد بعيد، هذا وجه أبي يدخل الدائرة ويتضـح هيكله ملفوفا في الكفن الأبيض، ومن ورائه تأتي أمي ثم يأتي نفر آخرون في صف لا أرى نهايته، بياضهم ممتزج بشفافية الشبورة. فلا أدري أهم أطياف أم أن الشبورة تتخلـق علـى شاكلتهم؟؟ إنهم يتحلقون حولي، ويغلقون على الـدائرة. أنـا الآن بين دائرتين، لا فكاك لي، توقفت قليلا حتى تقدم منـي

أبي، رفع يده العظيمة من تحت بياض القماش الذي انهـال كقطن مندوف، ولمس بيده شعري، ودنت أمي حتى سـمعت أنفاسها، ورأيت دمعة كبيرة تسيل على خدها، وارتمت فـي حضني بشوق لا يحد، صرت الآن بينهما، ثم دفعاني رويدا.. رويدا باتجاه الشواهد، وكتلة البشر المصاحبين لهمـا مـدوا أيديهم نحوي في استجداء، قاومت قليلا، ثـم نفضـت يـدي منهم، فسقطوا على الأرض عظاما مفككة، قلـت: لا أريـد الآن.. العمر لدي مديد. فناحت الأصوات من حـولي حتـى غلبها النباح، ها هو الكلب الأسود يخترق الدائرة، سواده هو الشيء الوحيد في البياض الذي أغرقني، جذبني مـن ذيـل سراويلي ليخرجني من الدائرة المحكمة، ثم لمحـت شـبحه الداكن يتقدمني فسرت وراءه، وصلادة الأرض مـن تحـت أقدامي أكدت لي أنني الآن فوق الإسفلت، وتوارت الأطيـاف التي حاصرتني، وتوهج نور مباغـت، وسـمعت حشـرجة "موتور" قديم بالقريب مني، ثم أتاني صوت قطار الصـباح مهللا، وانتفضت للفرقعة المدويـة حـين داسـت عجلاتـه الحديدية كبسولة التنبيه.

بعد فترة وجيزة أضاء نوره كصباح جاء على غير موعد، اتضحت الرؤية تماما.

ها أنا أرى "بلوك" السكة الحديد، ومظلة السيارات، والعمارات المرتفعة، وأحياني صخب الأجراس التي تهيئ لمقدم القطار.

ضغط السائق بقوة على دواسة البنزين فزمجرت السيارة، انغرست عجلاتها في طين القناة، ودارت في الفراغ، نزلت لأدفع جسد السيارة من الخلف، فوثبت إلى الأمام، واستراحت في وقفتها على الأرض الصلبة.

وسرنا الهوينا، نرقب الطريق من كل جانب نتسمع لصوت الإمام ينهي الصلاة. بعد حين لمحنا شعلة من لهب، انقشع لها الجدار الشرقي للشبورة فرأينا على وجهها أبراج الحمام والمئذنة وشواشي النخيل. واتضح لأسماعنا نعير الجاموس، وثغاء الأغنام وبكاء الأطفال، وتلمست الأنف رائحة الخبز واللبن المختثر.

شاشة بيضاء فارغة

إنه الاثنين، يوم العرض السينمائي في "ميس الضباط" عندما هبطت الظلمة، ولم يعد غير المصابيح التي تبرق، غادرنا الفرع، وهناك عند باب الميس أوقفنا العربة "الجيب" نزلت أنا وعبد المنعم نحمل آلة والشاشة الطويلة البيضاء، كان عدد من الضباط منتشرين وراء الطاولات، أمامهم أطباق العدس المصفى والجبن الأبيض والحلاوة الطحينية، والأولاد الذين يرتدون السراويل البيضاء والطواقي البيضاء يتحركون بنشاط بين الصفوف، ضيقت عيني حين واجهني الضوء القوى وظللت فترة طويلة حتى وضحت الرؤية.

رفع الضباط رءوسهم عندما رأونا، وسألوا عبد المنعم عن الفيلم، فقال: ثرثرة فوق النيل. ثم مال على أذني: علق الشاشة. فاخترقت الممر الطويل حاملا الشاشة الملفوفة، وتفاديت ألا تضرب الأطباق أو تخبط أحد الضباط، وقلت في نفسي: إنهم بالتأكيد سيسعدون بالفكرة.. فهي جديدة، ولم تخطر على بال أحد، والضابط محمد قال لي إنها فكرة عظيمة.

طلبت من أحد السفرجية أن يمسك لي الكرسـي لأصـعد فوقه وأمد الشاشة على المسمارين المثبتين في أعلى الجدار.

وسألني عن اسم الفيلم، قلت وأنا أقفز إلى الأرض: كلـه ضرب، فتهلل وجهه الأبيض واستدار يحادث زملاءه بفرح.

كان عبد المنعم مشغولا بتركيب الفيلم، قـال: حظـك.. سيادة اللواء مسافر. فقلت له: حتى في وجوده.

كان حكى عن اللواء، حين قام ذات ليلـة بعـد انتهـاء العرض، ومر عليه وهو وراء الآلة خالعا (البيريه) عـاري الرأس: فأمسكه من طرف شعره وراح يضربه في الحـائط قائلا له: لازم تحلق شعرك!

وفي ليلة أخرى كان يعرض فيلما قديما فانقطع الشـريط أكثر من مرة، فقام اللواء والضباط من خلفه، ولما وصل عبد المنعم قال له ساخطا: احبس نفسك عشرة أيام. فلم يملـك إلا أن يرفع يده بالتحية ليقول: علم يا فندم.

وعندما أقبلت على الفرع فرحت بالسينما وطلبـت مـن الضابط محمد أن أقوم بالعرض بدلا من عبد المنعم، فرفض، ثم إن العقيد أمرني بالتدريب على العرض فأنـا عسـكري مؤهلات يحسن التعامل مع هذه الآلة بدلا من هـذا الفـلاح

الذي يعمل على جرار، وقلت للضـابط محمـد: إن العقيـد طالبني بذلك فأجابني: أنت حر.

تزاحم عدد من الجنود على باب الميس وأطلوا برءوسهم مبتهجين. ونادى واحد منهم على عبد المنعم، وأشـار بيـده يستفسر عن اسم الفيلم، فنطر عبد المنعم يده وانشغل بتركيب الشريط وجاء السفرجي من آخر الميس ودفعهم إلى الخارج، فسمعنا همهماتهم من خلف الباب، واحد منهم مد بوزه فـي الثقـب سـائلا عبـد المـنعم عـن الفـيلم ولأن عبد المنعم لم يجبه، شتمه الجندي: فاكر نفسه باشمهندس.

انتهى الضباط من العشاء فرفعت الأطباق وبقايـا الخبـز المفتت. ودار السفرجية على الطاولات يمسحون مشـمعاتها بخرق قديمة، وأدار الضباط الكراسي وصارت وجوههم تجاه الشاشة البيضاء المفـرودة علـى الجـدار البعيـد، خلعـوا "البيرهات" ووضعوها تحت مرافقهم، صرت لا أرى غيـر مؤخرات الرءوس التي يحوم حول بعضها دخان السـجائر، ووقف عبد المنعم يفرك كفيه متحفزا لتلقي الأمـر، اقتربـت منه وقلت له: أنا خايف. فضحك: قلت لك!

ظهر الرأس الضخم بذقنين مخنوقين بأزرار السترة التـي يضيء كتفها صقر وثلاثة نجوم، تنخم من أنفه وأشار بيـده:

ابدأ يا بني.

هيأت نفسي وشددت ذيل السترة إلى أسفل، ووقفت فـي وضع انتباه، بلعت ريقي وبـدأت الكـلام: مسـاء الخيـر. فاستحالت الأقفية إلى وجوه بعيون محدقة وأنـوف مشـمئزة وشفاه منحرفة على جنب في حالة اندهاش، وأكملت: الليلـة نبدأ تقليدا جديدا. كل مرة كنا نكتفي بعرض الفيلم أما اليـوم فسنحاول تسليط الضوء على بعض الأفلام المهمة لنتعـرف عليها ونصبح أكثر إلماما بظروف إنتاجها ثم نحـاول فـك ألغازها حتى لا يظل الفيلم مجرد تسـلية عـابرة. ضـاقت تحديقة العيون، والأنوف ازدادت ارتفاعا وشموخا وازدادت الشفاه التواء، وأنا ازددت خوفا وارتباكـا وصـممت علـى المواصلة، رفعت يدي لأمسح العرق الذي نضح على جبيني، وأكملت: فيلم الليلة مأخوذ عن رواية للكاتب الكبيـر نجيـب محفوظ وفي هذه الرواية حـاول الكاتـب انتقـاد التطبيـق الاشتراكي في فترة..

وفوجئت بالأيادي التي رفعت مرة واحدة لتشير في إيقاع واحد منضبط تأمرني بالجلوس، فعدلت " البيريه " على رأسي دون داع وتواريت وراء عبد المنعم ورأيت الرأس الضخم يسأل عبد المنعم عن اسمي فأجابه: عسكري جديد في الفرع يا فندم. وسمعت التعليقات المتهكمة: عساكر آخر زمن. وسمعت نداءه: اطف النور يا بني وابدأ العرض. أسرع السفرجي إلى الباب وفتحه فاندفع الجنود إلى الداخل، بعضهم استطاع أن يخطف الكراسي الفارغة والآخرون جلسوا بين أرجلهم محملقين في الشاشة الصامتة، وهبت نسمة هواء خفيفة من جهة الباب جففت العرق البارد، ولما أطفئ النور وانشغل الجميع بالفيلم انسحبت دون أن يراني أحد إلى الخارج، تسلقت أكياس الرمل وسرت فوق الإسفلت الأسود الناعم ليقودني بعيدا.. بعيدا. وكمية كبيرة من الهواء الرطب استنشقتها رئتي دفعة واحدة.

رقصة الطير

كنا أمام القاعة، ننتشر على سلم الزحام، والزميل الـذي يخطب أحاط فمه بكفيه، انتفخت رقبته، وسال العرق تحـت شعر الجبهة، وعيناه كانتا متوترتين خلف النظارة التي تعكس شمسا صغيرة، وأربعة من الزملاء، وقفوا خلفـه واضـعين أكفهم حول أفواههم يرددون ما يقوله، فيسمع الجميـع، مـن أعلى درجات السلم، أمام الباب الكبير المغلق، حتى البقعـة المزدهرة بالورد والحشيش الأخضر عند المدخل.

قال الزميل: علينا أن نمر بالمدرجات لنقنع باقي الزملاء بموقفنا وننتهي إلى عقد مؤتمرنا، داخل القاعة، فهي قاعتنـا وليس لأحد حق منعنا من دخولها، وهتف زميل مـن آخـر الحشد رافعا الجريـدة علـى عينـه المواجهـة للشـمس: لا أشغال شاقة وتأبيدة.. الجامعة طالعة.. أكيدة.. أكيدة.

ورددنا وراءه حتى سرت ماء الحياة في عروق الـورد، فاعتدلت أغصانه، وازدهرت أوراقة الحمراء، ونسمة الصبح حملت هتافنا، ووزعته، على النوافـذ المفتوحـة، فبـرزت

رءوس الطلبة، وخرج آخرون ليقفوا على الأبـواب تحـت ضوء الشمس المنعكس بقوة على الجدران السميكة.

فجأة.. ومن دون توقع، انفتح الباب الضخم وهجـم منـه رجال يحملون عصيا غليظة، اندفعوا بسرعة خاطفـة مـن وراء ظهورنا وبدءوا الضرب بعشوائية، فتفرقنا فـي كـل ناحية، ووقعت بنات على الأرض، والرجال لا يكفون عـن تطويح الشوم في الهواء حتى فرغ لهم المكـان تمامـا، لاذ بعضنا بالأبواب المفتوحة. وبعضنا بالسور المرتفع، والبعض تحلق وراء أحواض الحديقة، يصرخ فـي وجـه الرجـال: بلادي لك حبي وفؤادي.

والسلم الرخام بانت درجاته النظيفـة الفارغـة، والبـاب الكبير ظل مفتوحا على آخره، وأمامه وقفت نادية يدها على وسطها غير حافلة، والرجل الأكرش كان يقترب منها بـبطء رافعا عصاه إلى أعلى رأسه مهددا. وثبت هذا المشهد فتـرة طويلة، وتعلقت أنفاسنا، ولم نملك غير الترقـب، والرجـل يدنو.. ويدنو. ونادية صلبة في وقفتهـا بـالبنطلون الجينـز والقميص الأبيض، والبلوفر الرمادي المربوط في عنقها تدلى على ظهرها مع شعرها الأسود الناعم.

اقترب الرجل ورفع العصا فوق رأسها تمامـا، تخشـبت يده، ثم ارتخت، وبدأت تنسحب بتخاذل، وفي هـذه اللحظـة بالذات مدت نادية يدها وأمسكت العصا من طرفهـا، وبكـل قوتها راحت تضرب الرجل على كتفه وهو يتراجع مهزوما، فصحنا بصوت واحد: شاطرة.. برافو يا نادية. وبدأنا نتقدم، خلعنا البلاط وحولناه إلى طوب صغير وجعلنا نقذف الرجال، وهم ينسحبون بظهورهم إلى الوراء.. إلى الـوراء، ونحـن نتقدم بتصميم وعزم، كنا نشكل نصـف دائـرة، والرجـال صاروا بين فكي الحلقة التي تضيق وتضيق، ولما تأكدوا أنها ستعصرهم، رموا عصيهم، وفروا، ثم اختفوا فـي الظلمـة خلف الباب الكبير. رفعت نادية على الأعناق، وصرنا جسدا واحدا، يندفع في حركة متوحدة، ويهتـف بحنجـرة قويـة، والجسد المتوحد ضرب بكتفه الباب فانفتح، وتمطى الجسـد بعنفوانه إلى الداخل، فانفتحت القاعة، والرجل الذي حـاول منعنا رفع فوق الرءوس، وألقي به إلـى الخـارج، والبـاب الكبير ظل مفتوحا، يمد مستطيل نوره إلى صفوف الكراسي، ويستقبل النسمات العذبة من بين عيدان الورد، لتستقر هناك،

عند المنصة، فـاهتزت لهـا السـتارة الحمـراء الشـامخة وتراقصت بين ثناياها طيور كانت راقدة.

وجه معكوس

على ضوء "الأباجورة" كنت على مكتبي مستغرقا في قراءة رواية غرائبية، ما بين الفصلين رفعت عيني، فوقعتا على الزجاج المقابل، كانت الصورة المعكوسة تبرز الأشياء التي سقط عليها النور القوي، في البؤرة، ثم تتلاشى المكونات الأخرى في الخلفية، تعرفت فيما بين هذه الأشياء على يدي، والخطوط الواضحة لمنامتي، ولكني لم أر وجهي لأنه في الظلام، ملت قليلا لأجعله في دائرة الضوء، فلم أتعرف عليه، كان وجها لشخص آخر، لا أعرفه.

غيرت من سحنتي عل الوجه المعكوس يستجيب، ابتسمت، فعبس، عبست، فابتسم، رفعت يدي فارتفعت، أخفضتها، فانخفضت، يدي تطاوعني، ووجهي يعصاني.

قمت عن المكتب فقامت معي يدي، دنوت من الزجاج فخرج الآخر منه، لم يوجه إلي كلمة، تجاهلني تماما، والتف حولي، ليستدير إلى المكتب، اتخذ موقعي هناك بصرامة.

رفع الكتاب بين يديه، واستغرقته القراءة، ووجدتني أتداخل مع الأشياء المعكوسة على الزجاج، وصرت وجها يتأمل – بثبات – الجالس على المكتب.

صوت غير مألوف

رأيناه يأتي من بعيد، شمس المغيب في وجهه، وظل يتمدد وراءه بطول نخلة، كان يسير تحت أشجار الطريق، فينمحي الظل مؤقتا، خط السكة الحديد يحدد الأفق الخلفـي، ويؤكـد نهاية الطريق الذي انحرف إليه.

نحن نعرف أنه قطع مسافة كبيرة حتى استدار، حين عبر ظل الشجرة الأخيرة، اتضح حمله، وبانت يده قابضة علـى الشيء المكنون في لفائفه.

هرع الأخ الأصغر جهة البيت، سمعناه يهتف لأمه.

- عاد.. أبي عاد.

لم نترك المكان، تشبثنا به، قلنا: سنلقاه هنا على الطريق. لم نستمع لنصيحة الأخت التي قالت: من الأفضل أن يلقانـا في البيت.

كان أهل القرية قد عادوا من حقولهم من زمـن وجيـز، انتشر بعضهم على الجسر، وتوزع البعض على المصـليات الطينية ليلحقوا بصلاة العصر قبل الغياب النهائي للشـمس،

بينما النسوة أشعلن نيران الكوانين، فانطلق الدخان من فوهات الأسطح ليتلاشى في رمادية السماء.

وكنا من موقعنا نرى وميض النور الكهربائي يضوي في المدينة البعيدة، هذه المدينة التي نرحل إلى نورها المراوغ، كل مساء نرقبه من بعيد، ويشتعل في صدورنا الشوق للعودة إليها.

قال الأب: هنا حياتنا أفضل ولا عودة إلى هناك أبدا.

وليل القرية يأتي مبكرا تماما كصباحها، الآن هو يقف بيننا، قال معاتبا: لماذا تقفون هكذا على الجسر وهمهمنا ونحن نلقي نظرة شرهة إلى حمل يده: كنا بانتظارك. وتجرأ أكبرنا ليسأله: هل ابتعته من سوق المدينة؟ ودفعنا أمامه لندخل إلى الردهة. كانت الأم تقف مهيأة لاستقباله بوجه بشوش.

تقدمت الأخت إلى المنضدة التي جهدت في إعدادها منذ الصباح، تلمست مفرش الدانتيل وأعادت إحكامه من كل الجوانب وانشغل الأب برفع الشرائط عن الصندوق الورقي، ثم سحبه من الداخل بهيئته المستطيلة وسماعته الأمامية المثقوبة والزر لاختيار الموجات والزر للفتح والغلق، خلع

الأب غطاءه الخلفي ليرص البطاريات الجافة فـي مجـريين بطول الجسم فرأينا أسلاكا رفيعـة للغايـة وعـدة معقـدة ومتداخلة.

أعاد الأب الغطاء إلى مكانه، وضغط عليه حتى سمعنا له "تكة" تحسم استقراره، ثم رفعه بين يديه ليجعله في مقابلتنا.

ران صمت بل حسبنا أن الكون كله يصيخ مثلنا بانتظـار حركة اليد التي أدارت الزر، فانطلق صوت من داخله يردد لحنا جميلا فعدنا بظهورنا لنصنع حلقـة، أردنـا أن نوسـع لينطلق اللحن حرا من دون أن تخنقه كتلتنا المتجمعة.

في البدء جاء الصغار شبه عرايا، جلبهم الصـوت مـن بيوتهم، لحق بهم غلمان يكبرونهم سـنا وبنـات صـغيرات أطلقن ضفائر شعورهن بحرية، وأعقب الجميع النسوة اللاتي تركن خبزهن وطبيخهن ولم يحفلن بالدخان المنسـاب مـن الطاقات من دون قيد، بعدهن الرجال بجلابيبهم المفتوحة عن الصدور، فركوا أياديهم الخشنة لتتناثر من أثر احتكاكها فتائل صغيرة من طين الكد.

وتجمعت بين أوراق الشجرة المنصوبة أمام الباب طيـور كانت تغرد في فضاء الحقول، توقفت عن التغريد واشـرأبت بأعناقها نحو الصوت.

سأل الأب: هل ترغبون في الذهاب إلى المدينة؟ وأجابـه صوت من خارج البيت: كيف وقت أتت إليهم المدينة!

الضحى والليل

١ - المقبرة:

الرجل يغور في جسد الليل النائم، يدوس الموت، يعتلـي المصاطب الطينية، والبوم لما رآه انزعج.. أسـقط نظراتـه متخفيا في أعلى الشجر العجوز.

المارد الحارس كسر ريم المصرف، تمد في القاع، لاهيا بفرحة الماء – (هل يجرؤ الإنس على شق رهبـة الصـمت العظيم؟)

هكذا سأل نفسه وأكد:

من يقترب تلحس لحمه النار المقدسة.. وشهق الماء تحت ضربته القوية، تناثر على الضفتين.

والرجـــل يعمـــق عينـــه فـــي اللوحـــة الرخاميـــة و ".. يا أَيتُها النفْس الْمطْمئِنةُ .ارجِعِي إِلَـى ربـكِ راضِـيةً مرضِيةً"، الشاهد رابض، تطلع من جسده الأبـيض رأسـان لكل رأس طربوش أحمر وزر، وعلى ظهره تمدد الخـوص الطري على الجانبين وبقايا زهر انطفأت جفونه.

"هه.. توكلت على الله" وضربة الفأس أيقظت النائم، فتـق التململ الكفن فانسدل، وفأس الرجل لا تعبأ تنهش الحفـرة، تلقـي بـالتراب والحجـارة، مصـابيح المدينـة – مـن بعيد – تحملق معلقة الأنفاس، وكل الشواهد والشجر، والريح لما عبرت ضربت كتفيـه ووشوشـت: تنـام الهـوام هنـا والسارقون وحراس الموت..

ضغطت قبضة الخوف قلبه، أنام يد الفأس علـى جـدار المقبرة نظر خلفه، السور تطل منه رءوس حجرية وجـذوع الشجر المنتهى في السماء.

صوت أنفاس تخرج من رئـة مكبوتـة بحجـم الكـون، وخطوات لقدم ثقيلة، وساقية تئن في البعيد، جلس على كومة التراب، اضطربت الأجنحة لما الثقاب اشتعل، التوى دخـان اللفافة في محاورته الهواء.

كل المقابر تعرفه والطرق المتعرجـة، بآياتـه الكريمـة يمنحها البركة، يملؤها بالأجساد، ينظف أحواشـها، يسـميها بأسمائها، يزرع عندها الصبار، ويروي أشجار التمر حنة.

ماتت قبضـته علـى اليـد الخشـبية، ضـرب الأرض وضرب.. ظهرت الأحجار متراصة متماسكة، دفعها بيـده. في أنفه تشبثت الرائحة الثقيلة العفونة.

(في الصبح.. شق زحام الباكيات، فتح له الباب ودخـل، حمل الجسد مع الرجال إلى المغسلة.. دعاه ليقضي الحاجـة الأخيرة، وبالموس رفع شعر الإبطين والعانة.. ومن الإنـاء دلق الماء.. قلب الجسد الطيع.. وأزال الرغـوة بـالكفين.. دعك الوجه الباهت.. جففـه.. دس القطـن فـي الأذنـين والاست.. وملائكة السماء تحوم حوله تحثه.

الصريخ عند الباب يتكثف في الأذن اليسـرى.. تـتلمس الصرخة الحزينة والصرخة المجاملة.. والرجل يقطع القماش الشاهي الأبيض، يجمع أطرافه على الجسد.. يمـرر عليـه الإبرة والخيط.. يأمر بحمل الماء إلـى الخرابـة البعيـدة.. ويحمل الجسد إلى السرير جهة القبلة.. ينزل أكمامه.. يسوي عمامته، ويسبق المشيعين إلى المقبرة..

كانت الشمس تضج بالسخونة والضـوء السـخي، هـبط الحفرة، سمع الأنفاس السماوية تتردد، كنس المكان وسـواه،

فرشه بالرمل الرطب، طرد الذباب، وثبت حجـرا للـرأس المقبلة..).

رفع الحجارة أعلى الحفرة، انثنى ظهره، "بسم الله" أشعل ثقابا.. الجثة راقدة على الرمل مفكوكة الكفن، ترتاح رأسـها – جهة القبلة – على حجر، النار لسعت يده، أشعل ثقابـا.. السقف يهبط والأرض ترتفع في تحد، جرجر الجثـة جهـة العين، مددها بين الجدارين.. عاود رص الحجـارة، انهـال التراب عليها، جمعه بباطن الفـأس، سـواه، ضـغط عليـه بالكفين، دكه برجله.

وجه الجثة جهم يجمع بصقة "لا بأس" لمعت أسنان الفـم الذهبية، خلعها الرجل دسها في جيبه.. تذكر السروال الـذي تبرز منه عورته، فك القماش الشاهي الأبيض، طـواه مـع الجلباب والعمامة، رفع الجسد على البنية النحيلة، جرجـره للحظة، ثم عاود رفعه..

انهطلت يدا الجسد على بطنه، واختار أقصـر طريـق.. هاهو يسير به تحت الشجر المتشابك.. والعيـون المحملقـة تكثف في حدقاتها الصورة والمارد لما يزل علـى الجسـر يلهو، هذه الأرض التي يطويها مملكته، هو أوحدها، لو تبدي

له المارد جسدا حيا لقتله، والحياة حين تنسحب مخلفة الموت للأجساد يغسلها بمائه الطاهر، ولا دخل له فيما يقـع خلـف جدران المقابر، بعد أن يذكرها بـالرب، والنهـي.. ويـردد الشهادتين، ويكون آخر الكلام.. يدع للملكين الأمر، يضربان الأرض عند الـرأس بالحديـدة الطويلـة بمسـافة الأرض والسماء.

٢- الزيارة:

الفقهاء والشحاذون، عمي وعور ومبصـرون، لمـا رأوا موكب الحزن، تمسحوا بالشاهد الرابض تبرز مـن جسـده الأبيض رأسـان لكـل رأس طربـوش وزر، داروا حولـه وقرءوا: ﴿**قُلْ هو اللهُ أحد* اللهُ الصمد**﴾ الزوجة البضة فـي المقدمة، تخدش الصدر تلطم الوجه، تذكر الميـت بالصـبية الصغار وتلوم الله.. ومن خلفها النسوة يحملن السلال عليهـا أغطية – جوقة صريخ مهدود – المقابر تصطخب بالأسود.. والقلوب التي تآكلت أنبتتها الفرحة بزيـارة الأهـل، أقعـت هياكلها تصيخ تحصي المحب والجاحد.

والنسوة هناك والرجال انتشروا يطعمون الموتى الآيات، ويمنحون المقرئين الفطائر والخبز، يروون أشجار الصـبار

الذابلة الموحشة، ينثرون المـاء علـى الشـواهد وحولهـا، يقطعون الفروع الخضر، ويوزعونها على المصاطب.. عند الشاهد الرابض اجتمعن، الزوجة تمرغت في التراب.. نثرته على رأسها، وهن ينهنهن دامعات الأعين، والفقهاء يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم يأمرون بالإقلاع، فلا تقلق المـوتى في مضاجعهم الآمنة.. – من الحرير للتـراب.. صـرخت المرأة الوالهة وتذكرت ليلتها الباردة (ورث العز عن أجداده، بدأ به ارتقى عنان السماء السبع، أضاف إلى الأرض أرضا ولما انفض زمانها، ابتني العمارات وسير السيارات وسـكت قلبه حين اكتشف ضياع بعض ماله).

تهافت الشحاذون على القروش التي نثرت علـى سـطح المقبرة، والشيخ الوقور زجرهم رحمة بالعظـام.. السـيارة الجيب من خلفها السيارة البيضاء وقفتا على الجسر هنـاك، الضابط على كتفه تلمع النجوم بينما نامت الأشرطة السوداء على كتف الشاويش، والرجل النحيل عند رسـغه الحديـد، رأسه في الأرض.. أهذه هي المقبرة؟.. هز الرجل النحيـل رأسه – للضابط – موافقا لم ينتبه للطمة القوية على خـده، أشار ذو النجوم للرجال: أعيدوا الجثة مكانها..

جاءوا على كتف واحد منهم فأس، عند الفتحة ضربوا بها الأرض، والنسوة تجمعن على الضابط، انزوى بالزوجة في الركن، انهدت على الأرض، أطفـأت الغيبوبـة عيونهـا.. أسرعن حولها، يبللن وجهه بالماء، بينما قدم الرجال يحملون اللفة البيضاء المتهدلة، تحلقن حولها جوقة عويل، تجمع كـل سواد المقابر وتكثف حول الشاهد الأبيض.. أهيل التـراب.. عفر المكان الدهشة والسؤال على الوجـوه المعصـبة، وذو النجوم لا يجيب.. ذهب ورجاله إلى السيارة التـي نفخـت الدخان والغبار.. واختفت..

أسد السيرك

رأيته يقف على بابه يضع على رأسه طربوشـا ورقيـا أسود له خطان من الأمام، أحدهما أزرق والآخـر أحمـر، ويمتد تحت أنفه شارب مبروم إلى أعلى، وكان قميصه فـي سراويل، وأطراف السراويل داخل الجورب، وكان يمسـك بيده عصا طويلة، ربط برأسها الخيط، وجعل منها سوطا.

اقتربت منه وأنا أتحسس طرطوري الذي سقطت شراشيبه على عيني، وقفت أتأمله وهو يركن بكتفه على جانب الباب، ويضرب السوط في الهواء، فتفرقع أطرافه.

قال لي: تلعب معي لعبة السيرك.

قلت: أخي أدخلني السيرك ليلة الأمس وكان به أسد كبير.

قال: أنا عندي الأسد.

قلت له: أنت تسخر مني.

قال: في الخرابة التي بآخر الشارع كلبة ولدت عددا مـن الجراء.

سألته: ما لنا والجراء؟

أجابني: نستطيع أن نجعل من أحدها أسدا.

في الشارع الخلفي الذي تقع فيه دورنا كانت الأبواب مغلقة والشمس تملأ المكان، والظل لم يزل معلقا على الجدران، أما الشارع الكبير فكان يموج بأهل القرى العائدين من المولد. كانوا يمشون خلف الحمير التي تركب الأولاد والبنات الذين يرتدون الطراطير وينفخون في المزامير.

قال: ها هي الكلبة في الركن البعيد.

قلت: اقذفها بحجر.

كانت كلبة سوداء لها أثداء عامرة، تتدلى بثقلها إلى الأرض، انسحبت دون مقاومة، وألقت علينا نظرة عاتبة، كأنما تقول: ها قد تركت لكما المكان فلا تؤذيا جرائي.

سألني: أيها تختار؟

قلت: هذا.. فهو بلون الأسد.

وأشرت إلى الجرو ذي اللون البني الفاتح، فانحنى إليه ورفعه من تحت بطنه، بدأ يعوي عواء مرسعا، لا يضر ولا ينفع، وعدنا نحو دورنا، حيث أحضر قفص الجريد. وقال: هذا هو بيت الأسد.

أحضرت قطع القماش القديمة. وقلت: هذه هـي خيمـة السيرك.

وبدأنا نغرز العصى والجريد في ثقوب الحـائط، ونمـدد عليها قطع القماش فتكون السقف، وأسدلنا بعضـها لتكـون سورا يمنع العين التي يعجز صاحبها عن فهم الوضع.

وسألته: من منا سيكون المروض لهذا الأسد؟

قال: ها أنت تراني بهيئة المروض، ولا ينقصني شيء.

قلت: وأنا أقدم الغناء، وأعمل الحركـات التـي تضـحك الأولاد.

قال: أنت لا تستطيع أن تقول "المهرج".

قلت: ولكن هذا الذي تقول عنه كان له وجه أبيض ولـه رموش طويلة وشفاه حمراء غليظة.

قال: تعال.

أدخلني الحجرة بآخر الدار حيث نثر الدقيق على وجهـي ثم مرر القلم الأسود القصير حول عيني، ومرر القلم الأحمر الدهني على شفتي، وأحضر مرآة صغيرة، وقـال: انظـر. فكنت على هيئة "المهرج" وضحكت مـن نفسـي، وقطعـت

صالة الدار، وأنا أتقافز، وأثب، وأرمي جسمي بطوله علـى ذراعي، حيث أسير عليها متشقلبا، ثم أعود فـأرمي سـاقي على الجدار، وأهبط بهما رويدا رويـدا حتى ألامس الأرض مرة أخرى.

وهو واقف أمام الخيمة واضعا فمه فـي علبـة سـجائر فارغة يصيح بأعلى صوته: تعال.. تعـال.. بـص بعينـك وارحم بقلبك.. الليلة إكراما لصاحب المولد نقدم لأول مـرة الأسد الجبار يقفز وسط النار، ويـنكمش أمـامي كالفـار، فسبحان الواحد القهار.

لما التم الأولاد والبنات سألوا: بكم تذكرة الـدخول؟ قلنـا لهم: الكراسي الأمامية بغطيان الكازوزة والكراسي الخلفيـة بنوى البلح.

فتفرقوا في الشوارع يبحثون عن أجر الدخول، ينكشـون في التراب، ويقلبون في الكيمان، ثم عـادوا مـرة أخـرى فوزعناهم تحت الخيمة، وتركنا في الوسط مساحة فارغة، ثم أسدلنا قماشة الباب، انتظرت أنا بالخارج وهو دخل القفص، أطلق الجرو الذي لم يكف عن العواء، وراح يفرقع بالسوط، فانقلب عواؤه عويلا يقطع القلـب، والمشـاهدون صـفقوا

وهللوا، والجرو ازداد رعبا وانكمش تحت قدم المروض قافزا، فلم يفعل، فألقى القفص عليه، وجعل الجرو يدور في حبسه، وقبع أمامه يدفس له العصا من بين القضبان والجرو يصرخ، والأولاد يهللون، وكنت قد رفعت فرجة بين قماشتين أراقب اللعبة، وأنتظر دوري بفارغ الصبر.

ورأيت الكلبة السوداء مقبلة نحو السيرك بحذر، زامت في وجهي، وكشرت عن أنياب بيضاء حادة، فرجعت بظهري، أستغيث بالأولاد، ولكنهم كانوا زائطين بالداخل، يصفقون بأكفهم على إيقاع موحد مع العواء الحاد.

ورفعت الكلبة السوداء القماشة ببوزها، ودخلت السيرك. وسمعت صراخ الأولاد وهم يقومون عن أماكنهم بفزع، فرفعوا برءوسهم السقف، وبانت الكلبة، وهي ترفع بشدقيها قفص الجريد لتلقيه جانبا، ثم تقبض بفكيها على الجرو، ولا تنظر إلى أحد منا، والمروض اقترب منها بسوطه، غير أنها لم تهتم به، ولا بفرقعاته، ظلت قابضة على وليدها، عائدة به إلى جحرها، تجر جسمها الثقيل ذا الأثداء المترعة التي تصل حوافها إلى الأرض، وقفنا جميعا نرقبها من خلف حتى لم

نعد نسمع العواء المستغيث، وعدت أغـرس العصـي فـي الجدران، وأضبط الأقمشة عليها.

قلت للولد: لم أقدم نمرتي بعد.

قال: نسميه "تياترو" لأنه لا يكـون السـيرك إلا بوجـود الأسد، وصاح الأولاد والبنات: نجعله "تياترو".

ووقفت في الحلقة الفارغة مهيئا لتقديم ألعابي.

القتال على السطح

رغم أن القطار كان في أقصى سرعته، والخيال الملقـى في الخارج يدل على أن عراكا فوق سطح العربة، ظل النوم والجمود على الوجوه التي فقدت ملامحها.

"انظروا.. انظروا" صرخ في الأجساد البليدة الراقدة فوق الكراسي لكن بئر النوم سحيقة.. مر المحصل ومـدت إليـه الأيادي بالتذاكر في خمول بارك السكون غير العـادي، رآه فـي جلسـته جـوار النافـذة، فاجأتـه العينـان اليقظتان – الحركة الوحيدة بين الركـاب – قـال: انظـر.. عراك فوق السطح. قال: ما لنا نحن؟ قال: أرجـوك اصـعد إليهم. واصل سيره وسط أكياس الرمل النائمة، التفت إليـه: كن في نفسك.

(الأشجار تفر.. وأعمدة الهاتف تفر.. وكـذلك الـزروع والمدن البعيدة) والخيال فوق الأرض يلاحق القطار، رجلان أحدهما شبك كلتا يديه وراح يضرب فوق رأس الآخر، ولكنه لم يسقط بل يضرب في كل جزء من الجسد الكبير "كفـى.. وليغفر لكما الله" تداخل الهتاف في صوت الموتور الممزوج

بضربات العجلات، كان نصف جسده بالخارج حـين هتـف ثانية وثالثة، أدخل رأسه، راعه السـكون المميـت وتكـاثر الذباب حول الأفواه والعيون، وقف على كرسـيه، صـرخ فيهم، لم يتحرك غير الذباب الذي ذعر للحظة ثم عـاد إلـى مكانه حول الأفواه والعيون، بين صفي الكراسي، وقف، هز الأجساد.. هزها بعنف، صاح: القتال فوق السطح. انتبه على عين المحصل تحملق فيه بسخط عند نهاية العربة، اقتـرب منه قال: قلت لك كن في نفسك.. أنت تريد إزعاج الركـاب، وليس هذا من حقك دعهم يستريحون. قال: تأكد أنت بنفسك.. هناك فوق السطح رجلان يقتتلان.

ربت على كتفه: ها أنت بنفسك تقول إنهما فوق السـطح، إذن هما بعيدان عنا.

وقف جامدا في مكانه بينما كان المحصل يغلـق البـاب عابرا إلى العربة التالية وفكر: قد ينهي على الرجل ثم يهبط علينا.

(الأشجار تفر.. وأعمدة الهاتف تفـر.. كـذلك الـزروع والمدن البعيدة) والخيال ملقى علـى الأرض يعلـو ويهـبط معها، الرجل النحيف على ركبته يقاوم، والآخر يضرب بكل

أطرافه في كل مكان، القتال بلغ حدا لا يستهان به (مـاذا !! إن الرجل الضخم يخرج شيئا من صدره.. يـا إلهـي إنهـا مطواة.. أنقذهم يا من ترعاهم بعنايتك.. إنك المطلع علـيهم بوضوح.. إنك وحدك الذي تعرف الحقيقة) (أمسـك نفسـك يا رجل.. ضبط النفس واجب) ضاع الصوت بـين قعقعـة العجلات وضجة الموتور، قفز من مكانه زكمت أنفه رائحـة الأجساد الكريهة، هزها بعنف (أفيقوا.. من أول محطة وأنتم نائمون) في منتصف العربة وقف، جرى في كل جهة، صاح بكل قوته وبأعلى صوت (سيأتي الدور عليم.. الرجل الوحش شَره) مرة أخرى هز الأبدان الثقيلة.. مرة أخرى أطلقت عينا المحصل نارها نحوه، ضغط بأصابعه على صدره. قذفه إلى جدار العربة "ماذا تريد منهم؟؟ هه.. قل إنك تريد أن تثيـر الشغب، إذن أرني تذكرتك" كان يبحث عنها في جيوبه بينما العيون المنفوخة قد فتحت على نظرات كسلى لا معنى لهـا، زجاجات تنعكس عليها الأشـياء دون أن تنفعـل، والـذباب مازال على الأفواه التي تطلق الرائحة الكريهة، لم يعثر على شيء.. قال: كانت معي.. وقد اطلعت عليها.. كيف اختفت؟

رد: إذن فقد أضعتها.. إياك وإثـارة الركـاب وإلا أنزلتـك المحطة القادمة.

عاد بظهره بعد أن أغلق الباب في وجهـه، وحـين رأى العيون مفتوحة في بلاهة راوده الأمل، أشار إليها: إن أخوين لكم يقتتلان فوق.. لم يتم فقد انسدت الأجفان الثقيلة.

الصرخة لم يكن ألمها مما يؤثر في المشاعر بل من هـذا النوع الذي يوجع العظام ويفتتها.. "آ.. آ.. ه" جـاءت حـادة مؤلمة وكان ظل يسقط والآخر فوقه يغرس المطـواة حيـث يشاء.

(والأشجار تفر.. وأعمدة الهاتف تفر.. كـذلك الـزروع والمدن البعيدة) والقطار في سرعته لا يحفل بشـيء، ألقـى نظرة بالداخل، أراد أن يصرخ، تذكر المحصـل، صـمت، الوجوه ممسوحة باهتة والذباب احتشد في المكان والرائحـة التي فاحت كانت كثيفة تعلق بالأنف ولا قدرة على الخلاص منها، والثعبان الجهنمي يهبط من السـطح بـبطء وتثاقـل، الثعبان بلونه الأحمر يتكاثر بسرعة.. ينتشر، ذعر.. إنه الدم. هتف بخوف: انتبهوا الدم قادم، لم ينتبه أحد.

ومرة أخرى وقف في منتصف العربة غير عابئ (والآن لا مفر.. لقد جاءكم الدم) صاح بطريقة أكثر عنفا..

ارتفعت الأجفان عن أحداق محتقنة.. نظرت دون جدوى، كأنها لم تر شيئا، لم يلمح أي تعبير جديد، المحصل أمسـك بخناقه.. احتجزه. قال: أنت تثير الغبار على رأسك.. أجابـه بتحد: ها هو الدم.. ألا تراه؟؟

الثعبان الجهنمي يسعى بثقله فـي كـل الأنحـاء، علـى الجدران، وفوق الكراسي حتى غطى كل الوجوه.

(والشجر في الخارج يتتابع.. وأعمدة الهاتف والـزروع والمدن البعيدة).

قدم شرطيان ووقفا في صلابة قال: أنتم لا ترونه؟

نظر حيث أشار، بدا كأنما لم تقع أعينهما على شيء يلفت الانتباه.. لكن الدم الحار المتماسك تسرب حتى التف بالأقدام.

أفلت من يدي المحصل صائحا بصوت مشـروخ: إنـي صاعد.. أحاط به الشرطيان وقيداه.

وضجة الموتور ممتزجة بضربات العجـلات (الصـوت الوحيد) والخيالان المتصـارعان منعكسـان علـى الأرض يعلوان ويهبطان معهم، والركود بالداخل والدم الذي ارتفـع

فوق الكرسي، والذباب المجتمع علـى الوجـوه، والعيـون المخدرة ظلت مفتوحة على الدهش.

أمسية الهواء المحبوس

عبرنا صف الدكاكين المغلقة ودسنا شريط النور الممتـد من باب الصيدلية المفتوحة، وكان الشارع المسفلت صـامتا، وقطيع من الماعز كان منتشرا في الخرابة ما بين الصـيدلية والعمارة المرتفعة.

توقفنا عند السيارة المجهزة بغرفة نوم حديثة. كانت تقف بجوار سور الفيلا وكان فرع الشجرة المزروعة بالداخل ينام على ظهرها. نظرنا بتردد عبر فتحات السور ورأينا النـور الخافت محبوسا في الزجاج السميك للباب الحديد. قال عوف: يمكن نام. قال أحمد: نحاول.

ووجدنا الباب العريض للسور مفتوحا على آخره، وكانت الضلفتان مستندتين بحجرين. وعشة العزيزي بالداخل تتلاعـب بها النار، وهو بالقرب منها واضـعا يـده فوقهـا ويقلـب الجذوات، خبط عوف جنب الباب فخرج العزيزي من وهـج النار إلى الظلمة: من؟

قلنا له: مساء الخير. فبحلق فينا بعينـه السـليمة وعينـه الميتة كانت تنتفض تحت الجفـن.. سـأل أحمـد: الأسـتاذ موجود؟

قال: خيرا !!

- طلب بسيط.

رد العزيزي باب غرفته وتسلق السلالم الصـاعدة إلـى الفراندة وسمعنا عصافير الجرس تغرد. سألت: ماذا نقول له؟

قال عوف: اترك لي الكلام.

وأطل العزيزي يبحث بعينه الوحيدة عن مكاننـا ونـادى علينا من وراء الأصص المصفوفة على السور المـنخفض: تفضلوا.

سرنا في صف نحو السلم وتقدمنا عوف حيث تجمعنا في الفراندة مرتبكين، وكان الباب الزجـاجي الشـامخ مفتوحـا بضلفة واحدة ورأينا النجفة الكبيرة تبـرق وسـط الصـالة كراقصة، نورها المهتز يسقط على الكراسي التي وقف على قماشها الشاب بالشعر الطويل يضرب على أوتار جيتار لبنت جميلة تضم إلى صدرها الكلب الأبيض، والخضرة انتشـرت حولها تلالا ممتزجة بزرقة سماء قريبـة. عـاد العزيـزي

بكرسيين تركهما لنا ثم دخل مرة أخرى إلى الصالة بعـد أن رد الباب فلم يتبق منه سوى فرجة ضيقة وشريط نور رفيـع يقسم الفراندة نصفين، لم نقعد على الكرسـيين حتـى عـاد بآخرين وكان الأستاذ قد ظهـر بالـداخل مشـعا بـالروب الديشامبر تحت نور النجفة.

- أهلا..

ومد لنا يده فسلمنا ثم التفت إلينا: خير!!

- خير إن شاء الله.

حين اعتدلت في جلستي رأيت من فرجة البـاب صـورة أبيه بطربوشه وشاربه المفتول والوردة البيضاء على صدره، نفس الصورة التي أحضرها أبي معه. كنـت آخـذها منـه وأخرج بها إلى الشارع فأجد الأولاد يمتلكون صورا مشابهة وكنا نفك الحروف المكتوبة أسفلها "رمز الجمل".. "الرجـل المؤمن الشريف".. وكنا نراه ماشيا في الموكب بين رجـال يهتفون باسمه. وحين مر على دارنا تركت أمي يدي وشقت الموكب لتقبله وأبي قال عنه: هو الرجل الصالح.

ابنه يجلس أمامنا بشعره الخفيف وصـلعته التـي أكلـت نصف رأسه كأنه شباب الصورة المعلقة، وهـو لا يعرفنـا

ونحن نعرفه. تعلم في مدارس العاصـمة. أنهـى الجامعـة وسافر إلى الخارج ثم عاد ليعيش في البلد – بعد وفاة أبيه – وها هو يترك تجارة الأنتيكا التي ورثها عن أبيه ليتاجر فـي السيارات. سلك عوف زوره وفرك أصابعه وانحنى كثيـرا إلى الأمام وبدأ يتكلم بهمس: احنا طلبة في الجامعة.

- عال.. عال
- مغرمون بالشعر والأدب.
- برافو.. تكتبون شعر الغزل أم الشعر الوطني؟
- نكتب عن الفلاحين الغلابة.
- برافو.. الفلاحين بحاجة لمن ينصفهم.

ثم حذرنا أن نكون من أصحاب الاتجاهات المتطرفة لأن أخاه الضابط نبه إلى وجود متطرفين بالبلـد وأعـرب عـن دهشته لظهور مثل هؤلاء الناس في بلدتنا الآمنة.

- هنا؟
- أنا أعرفهم.

وأشار بيده أمامه وذكر أنهم هؤلاء الطلبة الذين يسهرون على مقهى "النهر".

- نحن لا نقعد على مقهى "النهر".

سمعنا الطرقات الخفيفة على زجاج البيت المضيء فقـام الأستاذ ليحضر الصينية التي برزت من الفتحة بين الضلفتين ونظر كل منا إلى الآخر وفي عينيه تسـاؤل هـل نواصـل الجلسة. أم ننتهز الفرصة لنبتعد عن هذا الرجل؟ وأنا حافظت على صمتي ولم أتحدث معه حتى اللحظة؟ عاد إلى كرسـيه مشيرا إلى الصينية: الشاي.

فرفع كل واحد منا كوبا، رشف أحمد بصوت عال وكـذا فعل عوف، أما أنا فقد حسوت بدون صوت. رمقني الرجـل من جانب عينه.

- لم أتعرف على حضراتكم كفاية.

فتحدث كل واحد عن نفسـه بإسـهاب وقـدمت نفسـي باقتضاب وبطريقة فيها إهمال أزعم أنه استفزه.

وضع كفه على فخذي وسأل: ما رأيكم فـي الانتخابـات الأخيرة؟

- كانت فرصة لمعرفة قوة البلد الحقيقية.

- صحيح.

كانت هذه الانتخابات بداية ظهوره وحققت له شهرة طيبة فقد استحوذ على قلوب الناس بعد أن أعلن انحيازه لمرشـح البلد، فلما سقط في هذه الانتخابات وقعت المفاجأة واستشـعر الناس الغدر وتأكدوا من التدخل لصالح المرشح المنافس وهو من بلدة أخرى معروف بعلاقته بكبار القوم. انـتفض قلـب البلد. خرج الرجال عقب صلاة الجمعة وجهـتهم المركـز. وقف أحدهم خطيبا في الجمع وحدث الاشـتباك فتحطمـت النوافذ وأحرق الكثير من الأوراق المهمة واشتعلت النيـران في الكشك القائم لحارس البوابة، ثم توجهوا إلى المقر القـديم للاتحاد الاشتراكي المعلق على شرفته لافتة الحزب الجديـد والسنترال وشبكة الكهرباء ومنزل رئيس مجلـس المدينـة وأشعلوا النار في دور المؤيدين للمرشح الغريـب. وظهـر الأستاذ مرفوعا على الأكتاف يهتف بيسقط ويعيش.

وقالوا: إنه ابن حقيقي لهذا البلد.

وصار اسمه يتردد في جلسات المصاطب وعلى المقاهي وبين الحقول. لقد صار الرجل المنتظر. في هذه الجلسة أراد إثارة الموضوع للتأكد من مكانته في قلوب الناس.

فسألته سؤالا مباغتا: أظن سيادتك سترشح فـي الـدورة المقبلة؟

فاجأه السؤال فعاد بظهره إلى الخلف.

- أعوذ بالله.

وتدخل عوف قائلا: وهل ستجد البلد خيرا منكم؟

- أنا رجل في حالي.

رشف من كوبه الموضوع على سور الفرانـدة، وسـرح بفكره بعيدا بينما جلسنا ثلاثتنا في صمت ثم عاد من سرحانه ليقول: بلادنا تغير كثيرا.

لم نعلق على هذا الاستنتاج فأراد تفصيل ذلك..

- يعني مثلا فرق كبير بين البلد الذي عرفته قبل سـفري وهذا الذي نعيش فيه الآن.

- لا شيء يبقى على حاله.

مرة أخرى سقط في الصمت، ثم عـاود رشـف الشـاي فلكزت عوف بكوعي ففرك يده ونكت البلغم من حلقه فالتفت الأستاذ إليه..

- لماذا طلبتم مقابلتي؟

- لنا ميول فنية وأعتقد أننا نستطيع أن نفيد بها الشـباب من جيلنا فاستخدمنا ساحة النادي لنؤسس جماعة تقوم بنشاط في هذا الاتجاه وقررنا إقامة أمسـية شـعرية نجمـع لهـا التبرعات وقد وافقت إدارة النادي مشكورة على استضـافتنا على أرضها وتكفل مجلس المدينة بمـدنا بالكراسـي وقلنـا فليشارك معنا القادرون مـن أبنـاء البلـد، لأننـا سـنقدم المشروبات والحلوى لنغري الناس بالحضـور، كمـا أننـا محتاجون لتكاليف الإضاءة والميكروفون وطبع الدعوات.

- جميل.. وكم جمعتم؟

- لا شيء.. قلنا نبدأ بسيادتك.

- وهل حددتم المبلغ؟

- أبدا.. كل حسب جوده.

وكم دفع الآخرون؟

فتدخلت أنا لأقول: قلنا لسيادتك لم نذهب لأحد بعد.

فخبطني بود على ساقي: صحيح.. نسيت.

ودلق الشاي المتبقي على لحاء الشجرة المنتصبة أمامنـا وترقبنا عودته بقلق، ثم وقف فجأة ليعقد حزام الروب الساقط على جنبيه..

- أنا مستعد لكن بعد أن تجمعوا تبرعات الآخرين.

ومد يده إلينا فسلمنا وكانت حرارة يده قد انطفأت فهززنا يدا ميتة، وصاح على العزيزي فخرج من حجرتـه متعثـرا بالحشائش المتناثرة أسفل السلالم وبعينه الوحيدة بحث عـن الدرجات فتسلقها دفعة واحدة، جمع الأكواب فـي الصـينية، ورأيناه.. من فتحات السور وهو يجمع الكراسي بينما كنا في الخارج نتخبط، ولم نكن قد انتبهنا لطريقنا بعد.

قبة بيضاء بين الشجر

مقامها هناك بالقرب من شـاطئ النهـر، تظهـر قبتـه المدهونة بالجير – من بعيد – بيضاء تحوطها ذؤابات النخيل وأطراف الشجر، لقبتها هلال تحوم حوله عصـافير وحمـام ترك أبراجه ليلقط الحب الساقط بين الزرع.

من جوف القبة تتدلى نجفة مشدودة إلى سلك طويل يمتـد حتى سقف المقام المبنى بالخشب، على جانب منه صندوق له قفل من حديد وثقب تسقط منه النذور، يتقاسمها – كل عام – أهلها المقربون، عائلة كبيرة على رأسها مأذون البلد، يعقـد الزيجات، ويؤم الناس في الصلوات الخمس، وهـو قصـير، يرتدي الجبة على جلباب إفرنجي أبيض، عمامته شال شفاف يلتف حول طاقية من قماش الجلباب، له ولد قصير، تعلم في المدارس حتى صار معلما، يقرأ على الأولاد قصائد الشـعر ويشرحها، في يوم الجمعة يقف على المنبر يذكر أهل البلـد بقواعد الإسلام الخمس، ويلومهم على ترك الصلاة.

في كل ليلة يراه الناس في الغرزة، يدخن الجوزة، ويعـظ من حوله، يؤكد لهم أن الخمر من الكبائر بينما الحشيش لـم يأت له ذكر في الكتاب.. وهو في حساب الشرع مكروه.

للمقام نافذة بحرية، في الصيف تهب ريح تستطيبها النسوة الزائرات، والنسوة يغادرن دورهن بعد آذان العصر، مـنهن من يفضلن زيارة القبور، يترحمن على أمواتهن، ويكتـرين لهـم الفقهـاء، يقـرءون مـن الكتـاب قصـار السـور، أو يسرن على الترعة تحت ظل الشجر السامق، ومن هنـاك ينعطفن إلى المقام، تغريهن الظلة والنسيم الطيب الذي يتردد في المكان، يقرأن الفاتحة لصاحبة المقام، ويدعونها أن تفـك عقدة اللسان عند السؤال، ثم يتذكرن النذر القـديم، فيوقـدن الشموع حول المقام، أو على أرض النافذة، ثم يلقين قروشهن على الشاهد المكسو بالحرير الأخضـر، والمعقـود رأسـه بمنديل أبيض، يتدلى منه الترتر الذي يلمع في الضوء.

وللمقام باب مفتوح علـى صـحن المسـجد المفـروش بالسجاجيد، النسوة يرمقن الباب بجانب العـين ولا يجـرؤن على الدخول، وهن حين يرغبن في الصلاة، يؤدينها هنـاك حول المقام.. أيام المولد يقدرن أن يدخلن الصحن الفسـيح،

والغريبات منهن يقضين فيه سواد الليل. بداخل الصحن باب يؤدي إلى الميضة، وصف طويل من المراحيض.. هناك تشم رائحة الكربون مختلطة بالرائحة الكريهة، ومن هناك تتـردد أصوات الرجال يتنخمون ويبصقون، تختلط بصوت الصنبور يدفع الماء في قناة قدت بين الحجر والأسمنت، تحمـل مـاء الوضوء، وتجري بها حيث تصب في مجرى المـراحيض، فيمتزج البصاق بالفضلات بماء الاستنجاء، ليخرج من فتحة ضيقة، تصب في الترعة المجاورة، يتشابك عليهـا فـروع شجر شعر البنت بالسنط، وللسنطة الكبيرة جذع مائل يعبـره الأولاد إلى الضفة الأخرى حيث يصلون إلى النهر الكبيـر، فيخلعون الهدوم، ويلقون أجسادهم في الماء، منهم من يصعد أعلى سور الكبرى، يرمي جسده الذي يلف في الهـواء فـي عمق النهر محدثا الارتطام المهول، يغطس ولا يبدو علـى السطح إلا على مسافة بعيدة، بالقرب منهم تنتشر النسوة على الحجارة الكبيرة البيضاء، ينظفن المواعين أو يغسلن ملابس الرجال.. تمتلئ عيونهن بعورات الأولاد النابتة بدكنـة بـين الفخذين، كذلك تتلصص عيون الأولاد على لحـم أفخـاذهن الناصع، فيسبحون على الظهر فوق الماء، ويلعبون (شـمعة

البحر) فلا تظهر غير ذكورهم مخترقة السطح بصلابة، مما يثير حمية الرجال الذين يغسلون حميرهم وخيلهم، فيقذفونهم بالحجارة أو يخطفون منهم الجلاليب، ليعودوا إلـى دورهـم يشكون قلة الحياء.

صاحبة المولد:

في أيام المولـد.. يتكـدس حـول المقـام المشـعوذون والمجذوبون ورجال الطرق الصوفية، يقيمون – بعد صـلاة العشاء – طبقة الذكر، يقف الرجل الذي ينشد، بيده مسـبحة وعصا معقوفة، يبدأ بطيئا بطيئا ليتصاعد في ذكر الأوليـاء الصالحين وأهل البيت والنبي المصطفىﷺ، حولـه الرجـال يطوحون أجسادهم وأذرعتهم في الهواء، ويشهقون على وقع الرق، بينما النسوة – والصغار على الحجر يمصون الثدي – يتناثرون على أكوام التراب يتابعن النشـيد الـذي يسـحب الروح، ويحلق بهن في السماوات العالية، منهن من تفـيض عينها بالدمع، ومن يهتز بدنها على الإيقاع، فيترجرج تحـت القدود لحم مكتنز، بين الجميع يمر الرجل بمبخـرة يطلـق بخورها العطر، من حين لآخر يهتف "حي".. "قيـوم" نفـس الرجل الذي شوهد في شوارع البلد بيـده جريـدة مربـوط

بطرفها ورقة تخبر عن الليلة الكبيرة، يدور بين حلقـة مـن الصبية الذين عذبهم الشوق للمولد، أعدت أمهاتهم الجلبـاب، وهاهم يترددون على الخياط يستعجلون الجلباب الـذي لـم ينته.. يقضون الوقت الطويل محملقين في الماكينـات التـي تخيط قطع القماش الجديد، ما إن تنتهي أيام المولـد السـبع حتى يلطخه الوسخ، فقد تهافتوا علـى المهلبيـة والبوظـة.. وهاهم يتمرغون بها على أكوام التراب، يطـالعون الشـيخ المنشد، بعد حين سيقيمون حلقة يقف وسـطها ولـد يرفـع عقيرته بكلام المنشد.

على الجانب الآخر، خلف حائط الجامع، انغرست أوتـاد في الأرض وامتدت منها أحبال مشدودة، تحتها يقبع الرجال يدخنون المعسل ويشربون الشاي، وبعمـق الخيمـة، قـرب الوابور الذي يوش، يجلس رجل يقطع الحشيش بأسنانه قطعا صغيرة، ليوزعها على الحجارة، وولـد مقـرفص سـريع الحركة يهرش رأسه، ويدفع المصفاة بالنار في الهواء، فتنقد حتى يخرج منها لهب.

بجوار الخيمة نام الغرباء الذين قدموا من البلاد البعيـدة، والبلاد البعيدة ترسل ناسها في حب الله، أو ليبيعوا طراطير الورق المدلاة من قفص الجريد.

يشتري الأولاد لبدة الخفير وشارب الخفيـر، وتشـتري البنات طراطير طويلة، تنتهي بشراشيب ملونة، يذهبون بهـا إلى دورهم، ويحتفظون بها حتى تبلى، كذلك يقضون العـام ينغمون على مزامير الغاب التي يبيعها الغرباء الذين نصبوا خيامهم على الطريق ما بين الجامع وتجار الفسيخ.

وتجار الفسيخ أوقدوا كلوبات تفرش بقع الضـوء علـى الأرض مساحات واسعة، بينما شـمروا أكمـامهم وبانـت زنودهم ضامرة معروقة، تمتد في البراميل، تخرج الفسـيخ المدفون في الملح، تفوح منه رائحة الزفارة لما يرصه الرجل على كفة الميزان. يمر الرجال من الطريق، وحين يقتربـون يسدون أنوفهم بأصابع اليد، ويلقـون النظـرات بـأطراف العيون، والفلاحون قد أمالوا الطواقي في مـؤخرة الـرأس، تحت إبطهم ترقد العصي الطويلة، وبأيديهم رفعـوا طـرف الجلباب، فتبدو السراويل بيضاء نظيفة عليها آثار الزهـرة.. يعبرون الطريق متعالين على الغرباء.

في دورهم حيث يسمرون يتحدثون عن البنت التي عثروا عليها بين أعواد الذرة في حضن ولد يلعق شفتيها، والبنت التي جعلت من سروالها وسادة لشاب غريب دارت عليه عصيهم حتى نزف دمه.

يعبرون وهم يضحكون في لهو.. إلى "تياترو سعودي" فالغازية بلحمها الرجراج هناك، على الخشبة العالية، تلقي أفخاذها في الهواء لتظهر سروالها الأحمر الذي يتحدثون عنه، بالداخل يفترشون القش، ولا يرفعون عيونهم عن الخشبة التي سينبلج من ظلمتها النور الباهر.

وها هو الخواجة بقبعته السوداء وحلته الإفرنجية الغامقة، يلقي عصاه في الهواء، فتنقلب إلى مناديل ملونة، يخرج الحمامة البيضاء من صندوق فارغ ويدلق الماء من كوب ليس به ماء.

يا لك من شيطان بارع أيها الخواجة! كيف أرقدت الطيور على رءوسها وسحبت العقول بحيلك؟

وماذا في جرابك أيضا؟ هم لا يصدقونك حين تمدد البنت الجميلة العارية – إلا من سراويل البحر – في الصندوق لتقطعها نصفين، ولكنهم كالأطفال يفزعون للصرخة التي

أطلقتها البنت التي تدلي رأسها من جانب وقدمها من الجانب الآخر.. وها أنت تسدل ستارك، وما عليهم إلا أن يجمعوا شتات النفس الموزعة لينطلقوا إلى فرجة جديدة، فهناك على أطراف الزحام، السيرك الكبير، سيرون الأسد ملك الحيوان تروضه امرأة سمينة، تدخل معه قفص الحديد، تضربه بالسوط، بينما هو يزأر كقط عجوز.. يعبر الطوق المحاط بكتل النار، ويقفز من مقعد إلى مقعد.. هذه هي أعجوبة الأعاجيب !!

في الطريق إلى السيرك قد يميلون إلى بائعة البوظة، يشربون الأكواز المترعة بالسائل اللذيذ، يمسحون الأشداق بأطراف الأكمام، ويطالعون الإلية المكتنزة للبنت صاحبة البوظة.. عقدت المنديل المزين بالورد على رأسها، ورمت الضفيرتين على ظهرها، وبعينها كحل يجرح القلوب، ويغري بالشرب حتى السقوط، جميلة لا حظ لها، مات جدها من عامين، وأبوها قتله الأفيون وسهر الليالي، تركا لها البراميل وعربة بحمار، تدور بها الأسواق والموالد، تسقي الناس البوظة التي أجادت صنعها، لما جاءها الغريب يترنح وفي جوفه يترجرج العصير الحامض، داعبها وقرصها

فغضب من فعلته الجدعان من أهل البلد. في آخر الليل تمـد الخيش على هياكل الخشب، وتفرد الغطاء على بدنها، وتجعل من ذراعها وسادة للرأس المجهد.. فالناس قد عـادوا إلـى دورهم، والرجال القادمون من العِزب القريبة ركبوا المطايا، وفي الخرج لعب وحلـوى للصـغار، يسـيرون متنبهـين للخطافين ولصوص الطريق المستخفين في حقول الذرة.

والكلوب الذي يضيء واجهة السيرك يظل إلـى الصـبح يوش.. وبقعة من نوره سقطت على الصورة، أفخاذ ممتلئة، ورأس فتاة مذبوحة، مشدودة من شعرها بأظفار كالمخلـب، والعين مفتوحة على آخرها في ذعـر، والـدم يقطـر مـن السكين، على الطرف الآخر بدا ذيل الأسد مفرودا، ورأسـه محاصرا بالطوق الذي اتقدت من حوله النار.

أسفل الصورة تكوم رجـال السـيرك تحـت بطـاطين الصوف، والميكروفون صامت بارد ملفوف بالحبـال علـى طرف العمود.

أما الخواجة فقد رمى قبعته، وارتدى الجلباب المخطـط، واستراح في ركن يشد دخان الجوزة بشوق شـديد، يتأمـل

النفس المنتظم للبنت الراقدة، والضوء الشحيح انعكس على فستان الرقص المعلق بالمسمار.

كأن الأرض تتنفس، وتتجاوب مع أنين ساقية لا يستجيب له الفضاء الساكن. والمسجد امتلأ باللحم، امتد من درجات السلم، وحول المقام، وفاض إلى الصحن المضيء، يتحرك فيه رجال رفعوا نعالهم على رفوف الخشب، وهرعوا إلى الصنابير، يرشون الماء على الوجه ثلاثا، ويستنشقون ثلاثا لينتهوا إلى غسل القدمين حتى الكعبين، ليعودوا متلهفين إلى الصف خلف المأذون الذي وقف في المحراب يذكرهم بأن الله لا ينظر إلى الصف الأعوج. بعد أن يتمم على الصفوف، ويرى الكتف في الكتف، يعطيهم ظهره، ويجعل الرأس بين الكفين، ليقول بصوت ممطوط قوي "الله أكبر" فيستجيبون لها بهمسات متردد قلقة سرعان ما تتوحد في صف واحد.. فتنهض من مقامها صاحبة العرس للصلاة، تصحبها هالة النور، من حولها ملائكة بيض الوجوه يصلون، نفس الملائكة التي حملت جثتها حين رفعت روحها إلى الملكوت، وحرستها

على طول الطريق من بلاد الحجاز إلى الحفرة التي اختارتها في البلد المبارك.

القسم الثاني

حلـــم التجلــي

(مختـــــارات)

السقوط على الأرض

هل سيبعث الله من عنده ثعابين وحشية تخرج علي من أكوام التبن القديم في ظلمتي هذه التي لا أرى فيها كفى؟ الظلمة تلاشٍ، وعدم، وأنا لولا الإحساس بأنفاسي المترددة لقلت إنه الموت، والنهاية، ولكني أرفع راحتي إلى فمي وأنفي وأشعر بسخونة النفس الخارج من جوفي، وأنا أسمع صريخ الاستغاثة من وراء الباب وأسمع السباب والزعيق، وضربات اليد المتجمعة فوق بدنها اللين، وأخشى على حملها من السقوط، وقدمي تستجيب لرغبة العقل، فتتحرك نحو الباب، إذن فأنا أتحرك موجعا، ينقح الألم في أعضاء جسمي المتهالك، أنا حي وأرى من خصائص الباب – في ضوء الصبح الشاحب – ما يحدث بالخارج.

الباب الكبير المغلق، وطرقات المغيثين من ورائه قوية، ومتعجلة، وفي الردهة يقف الأخوان متصلبين، مستندين على الحائط، عاقدين الذراعين على الصدر، ويد العجوز أبي العجفاء الميتة تنهال بالضرب، وقد نفرت عروقها الزرقاء، وجمد عظمها، ليهوي بآخر قواه على ظهر المرأة المحاولة

الشعر، الممزقة الثوب، فتبدو الكدمات على الصدر المبـاح وعلى العنق، وفوق الأصداغ أكف محمرة، مطبوعة، راسخة كنقش قديم، وعلى الأرض تبعثرت عباءته وشال عمامتـه، وهناك على عتبة حجرة نومه، وقفت الطفلتان مـذعورتين، ينفض بدنيهما بكاء يقطع النفس، والدموع سائلة على الخدود، وملتحمة بسائل المخاط والأفواه الصـغيرة مفتوحـة علـى آخرها تطلق أصوات الرعب وقد بدت في ظلمتهـا أسـنان صغيرة خضراء.

وأنا هنا في حبسـي مكـدود الجسـم، متـيقظ العقـل، لا أدري هل هذه نهايتي؟ أم حبس إلى حين ينظـرون فـي أمري؟ قد يصلون إلى أن يأتي العجوز بحبل سـميك، يلفـه حول رقبتي ويظل يضغط، بكل الغل المكبوت بصدره، حتى يعصر العنق تماما، ويميل صدري ميلتـه الأخيـرة وتظـل العينان الجاحظتان بفعل الخنق بارزتين خـارج المحجـرين ولا تريان شيئا البتة، فتتكدس فيهما ظلمـة أخـرى كثيفـة، لا يكون فيها نفس، ولا حركة ولا ألم. ربما يكتفي بأن يرسل أحد الأخوين، يجرجر عري المفضوح إلـى البحـر البعيـد فيربط حول العنق الحجر الثقيل، ثم يغطس في الماء الغويط،

تحت دوامة الجسر الهادرة، ويتركني أبقبق وحدي تحت ماء مستنفد الهواء، وأسقط حتى طين القاع، وأغوص مرة أخرى في ظلمة جديدة غير مألوفة، محاطة بماء لا نفاذ منه، ويكون العجوز هناك أعلى الجسر يرقبني، ويفرك يده تشفيا ويشـير إليه من بعيد، ليعود إلى الدار بدوني، وبإحساس الراحة بعـد الخلاص من عار ينكس الوجوه، ويكسر العيون المعتادة على الكبرياء.

وأنا كنت نبهتها إلى أن العجـوز فـي الأيـام الأخيـرة لا يطيق النظر في وجهي، ربما يكون قد عرف شيئا، يـوم الجمعة بعد أن عدنا من الصلاة، وافترشـنا أرض الردهـة لنجتمع على طبلية الغداء رأيته ينظر بجانب عينيه الكليلتـين إلى فخذها الذي نام على فخذي المربعة تحت الطبليـة وأنـا سحبتها بهدوء وهي لاحقتها بإلحاح، دون اعتبـار لنظرتـه المضببة وراء غشائها المبلول بماء لا ينتهي سـيلانه تحـت الجفن.

وفي ذلك الصباح حين عاد من صلاة الفجر، وكانت هي بغرفتي، لم تنتبه لموعد عودته، دفع الباب برجلـه، ودخـل وهي خرجت من بابي مبللة البدن بشعرها المنكوش، وتلـم

بعثرة صدرها المفكوك، وسمعته يسألها عن سبب وجودهـا في غرفة هذا الولد؟ وسمعتها تجيب بوثـوق، وبتحـد أنهـا استيقظت على صراخ الكابوس فجاءت ترفـع عنـي يـده الجاثمة لئلا يخنقني، وهو بلع قناعته، ودفن شكه، وقال: طب جهزي لنا القمة.

وتركها مشغولة بإعداد الطعام، وسمعت دفعـه المحـاذر لبابي، ورأيت في إطباقة أجفاني، رأسه الـذي أطـل مـن الضلفة المواربة، وشعر رأسي المبلول في عرق الجبهة، لا أدري هل فضح لقاءنا؟ أم أكد معركة مع كابوس رهيب كما ادعت له؟ وأنا افتعلت الاستغراق في النوم فمكنت الغطاء من حولي، ورددت أصوات النوم وأنا لا أعرف كيف حدث ذلك معها؟ في كل مرة حاولت دفعه، وهي التي شـجعتني علـى الفعل، وكل مرة أقول لها: كفى. ولكنها في كل مرة تسـمع فيها أذان الفجر، وصوت ماء وضوئه على حنفية الصـالة، وردة الباب القوية وراء ظهره، حتى تتـرك الطفلتـين فـي استغراقهما تعيد بعثرة شعرها، وتشطف الوجـه الصـابح، وتدلق العطر من زجاجتها الصغيرة المختفية في طيات هدوم الدولاب، وأسمع خطوها الهين، ومعالجتها لباب غرفتي، وأنا

أزداد انكماشا وأداري وجهي بوسـادتي المطويـة، وأزداد تناوما، ولكنها تصر بجنون تهز الكتف بحنو يحـرك المـاء الراكد في بدني الصغير، فلا أصحو، وأشم عطرها، فأطرده من أنفاسي ولكنه يتسرب من تحت الجلد يدخل في مسـامي إلى دمي السخن، وتسرح بيدها الصـغيرة العرقانـة علـى وجهي وعلى جانبي العنق وتهـبط يـدها لتفـتح أزراري، فيصبح صدري مباحا لأصابع متـوترة عفرتتهـا الرغبـة العارمة وترفع عني جانب الوسادة التي سال عليها عرقـي فتميل لتشم بأنفها القلق، وأستحيل أنا إلى ذرات عطر ضائعة في الهواء ترغب لو تنشقها في شمة واحدة.

وتحرك في الرجـل، وكـل مـرة أخشـى الاسـتجابة، ولا أقدر على النظر في وجهها، في كـل مـرة أرى فيـه الشيطان الأحمر، وفي العين الحانية الشبقة أرى أبي الواقف بيننا بعباءته السوداء كخفاش الليل، وأسمعه إلـى جـواري، فوق سريري، ويهتز في بكـاء العـاجز وأسـمع اسـتغاثته بالأجداد والآباء وأمي التي ماتت. وتخبو الرغبة، وتموت مع تردد أصوات الصلاة من الجامع القريب، ولكنها لا تخضـع أبدا للهزيمة، وتظل مصرة على الفعل فتقوم لتخلـع عنهـا

جلبابها، وتسحب جلبابي من تحتي، وأرى بياضها المغـوي في ضوء صباح يطل علينا من ثقوب النافذة، ولا تعود إلـى فراشها إلا بعد أن تطرد نزقها، تعود بعيون تلمع فيها أضواء فرحة متحققة، وبضفائر مفكوكة على قناة الظهر المـروي، رافعة جلبابها الذي أهمل على الأرض. واقترن عنـدي أذان الفجر وأصوات العجوز في المرحاض، ودفق ماء الضـوء على ذراعيه العجفاوين، بخطوها الحريص وبأنفاس عطرها، وبتهيج الدم الزاعق في عروقي. ولا أدري كيف بدأ الأمـر بيننا؟ ربما منذ كنت أسهر في دار أحد الزملاء، أيـام كنـا نترك الكتب مفتوحة، لنصنع الشاي، وندخن سجائرنا الفرط، لنسبح في حكاياتنا عن البنات، ويكون لكل واحد منهم حكاية مع بنت: واحد مع جارته، وواحد مع قريبته التي تـزورهم في الدار وآخر يحكي عن زوجة عمه وكيف رآها تستحم في الطشت، منتصبة في جوفه بلحمها الأبيض الشاهي، تميل في كل مرة لترفع الكوز وتقوم لتصب الماء على شعرها فيسيل لامعا فوق الجسد كله، وهو في مكمنه نائم على بطنه فـوق حطب السطح، لينظر من السقف لا يحفـل بالشـمس التـي أمسكت رأسه دون رحمة، فيقوم إلى سروالها المنشور على

الحبل، ويدخل به عشة الدجاج، ليكسوه باللحم الأبيض الشاهق، ويعنف فيه ليطلق منه التأوهات المسترحمة، وكانوا يضحكون منه، ومن خيبته، وينظرون إلى صمتي الكئيب، وتدور ابتساماتهم الخبيثة، على جوانب أفواههم لأنهم يذكرون حكايتي مع جارتنا التي كنت أعود بها، فوق حمل البرسيم، في شتاء قطع الرجل من الطرقات، ومررت على المقبرة المهجورة وطلع لنا – من تحت الأرض – الحمار الذكر الذي أطلق نهيقه، وعفرنا بتراب الطريق، وضربه صاحبه ليواصل السير بحمله الثقيل، ولم يكف عن الالتفات إلى الحمارة التي رفعت ذيلها وحركت فكيها الضخمين، تلوك لسانها بشبق مخزون، وحرك هذا الرغبة العمياء، فانتحيت بها وراء واحد من الشواهد الكبيرة غير حافل برعب المقبرة، وبعد أن انتهيت رأيت الشاهد الرابض يزوم بشراسة، ويطلق الشرر من عينه الغادرة، فأجري تاركا الحمارة ورائي تشمشم ورق الأرض، وتعود إلى الدار بعد أن رمت حلمها هناك.

حكيت لهم هذا، ولم ينسوه أبدا، إنما يبدون لي رحمة متكلفة، لأني فارغ من قصص المغامرة الحقيقية، ثم يلمز

أحدهم إليها، ويقول: كيف تتركها وهي ملك يمينـك، وأنـت تعرف عنها ما تعرف، ويلمحون إلى شبابها الغض قبـل أن تدخل دار أبي، وكيف كانت الحكايات تتناقل عنهـا وعـن اختلائها في حقول الذرة بالشاب الذي رفضه أبوها لفقره، ثم منحها للعجوز الثري نظير إيجار فدانين، بعد أن هلكت يـده المحتاجة، وكيف أرغمت على الزواج من أبي الكهل، البلـد كلها تعرف ذلك، وقد مصمصت شفاهها عجبا والعجوز أبي لا يهتم، أدخلها الدار، وغَلَق الباب والشباك، وصك أذنه عن كل ما دار، وربما لا يعرف أنها كانـت الرغبـة العارمـة الحامية لجدعان البلد ورضيت بقسمتها ونصـيبها وأولـدها العجوز طفلتين، بعد أن عزل ولديه الكبيرين، وجعـل لكـل واحد منهما دارا مستقلة على أطراف البلد، وفرغت حجرات الدار الكبيرة وصرت أنا وحيدا بينهما، لا يهتم بي العجـوز ولا يسأل إن كنت أبيت في غرفتي أم أننـي أنـام فـي دار زميل، ولا يتذكرني إلا حـين أقـف أمامـه فجـأة أطلـب المصروف، أو أطلب ثمنا لكتاب جديد، ونبهنـي الصـحاب إليها، وكانت هي في غفلة، ولا أدري إن كانت مهتمة بدارها الجديدة الواسعة؟ أم فكرها هناك في حقل صديقها القديم؟ كل

ما أعرفه هو ما أراه من صحوها المبكر، وعملها الـدءوب في الدار ما بين عشة الدجاج والزريبة وغسـيل المـواعين ولف البنتين، والكنس وتنقية الحب وطحنه وإعـداد طعـام للعجوز، ورأت ذات مرة وقفتي المستغرقة أمامها وانتبهـت من غفلتها لتلم صدرها المدلوق في فم الطفلة، ولتصيح فـي وجهي: مالك واقف كالصنم؟ ورأت ارتباكي وانسحابي مـن أمامها إلى الشارع، مضطرب الخطو.. التفت إليها من وراء ظهري وفي عيني رجاء: أنا لا أقصد. وكان خـوفي مـن العجوز يوهن إرادتي. وفوجئت أنها مقبلة علي علـى غيـر العادة تهتم بي، تدخل علي حجرتي. تسألني ما إذا كانت لدي غيارات تحتاج لغسيل، وفاجأتها مرة على طشـت الغسـيل، تقرب قميصي من أنفها، وتطلق تنهيدة قصيرة.

وأنهت الحذر الذي كانت تبديه أمامي، فلا تهتم أن تغلـق وراءها باب حجرة النوم وأصحو في هدوة القيلولة لأراهـا وحيدة في فراشها، رافعة جلبابها إلى صدرها لتبدو أفخاذهـا ساطعة في غبش الحجرة وأميل برأسي إلى الأرض، وكأنني لا أرى. وتجلس على درجة السلم مهملـة لا تهـتم بعـرى

أفخاذها، ولا بسراولها البادي حتى لعين الغريب الذي يمر من الشارع.

وكانت الليلة التي طرقت فيها بابي حاملة كوب الشاي لتضعه أمامي وأنا منكفئ على السطور، ولا أدري هل قصدت إلى هذه اللمسة التي كهربت بدني، وانحناءها بالصدر المفتوح على آخره لأرى الغواية المحبوسة خلف شفافية الثوب؟ وسألتني: عاوز حاجة تاني؟

وساءلت نفسي: هل هذه عناية أم بولدها؟ أم أنها تعلم بالنار التي أشعلها الأولاد في جسدي؟ أم هي رغبتها غير المحققة؟ ورفضت تساؤلي الأخير وقلت: ولماذا معي أنا بالذات؟

حتى تحقق ذلك صباح يوم شتوي كافر البرد لأصحو بعد خروج العجوز على الأنفاس اللاهثة في فراشي، وأقوم فأجدها إلى جواري، وكان دفء وكان قرب، وكان إثم، أرعبني طعمه عقب وقوعه، وقلت: لن يحدث هذا مرة أخرى. ولكنها تعودت على ذلك وتعود جسمي على صحوة الأذان، وأصوات المرحاض، ودفق ماء الوضوء، وخطوها الحذر، وعطر أنفاسها، وكل مرة حاولت التخلص من

وسوسة الشيطان الذي يقبع في دمي وكنت بعد كل مرة أخبط رأسي في الحائط حتى يسيل الدم، وتعودت الهـروب مـن البيت وتعودت السهر مع الزملاء، وطالت سرحاتي معهـم، وتقلقل لساني في حواري وهم لا يعلمون سـري المخبـوء، ما زالوا يسخرون من واقعة الحمارة، ويدفعونني للإثم معها، وهم لا يعلمون أنه وقع، ولا أقدر علـى إعـلان فحـولتي أمامهم، كما يفعلـون، وشـحوب بشـرتي لـم يفضـحني، ولا سرحاتي الطويلة، وأبي أمرني بالانقطاع عـن السـهر خارج الدار، وهددني بقطع لقمة العيش إن فعلت، وعرفـت أنها وراء ذلك، وعدت، وقلت: فلتكن قويا في دفعها.

ولكنها تعلن عن ولهها بي، وتسدر فـي ذلـك، لا تقـيم للعجوز وزنا، وقلت: ربما سلوكها تجاهي يعلن عن شـيء، وكل مرة أكذب نفسي، وصرت كأنني أنـا صـاحب الـدار تسألني عن طبيخ اليوم وتهتم بنظافة حجرتي وترتيبها، وتهتم بهندامي، وربما أهملت حاجات الرجل الذي نحيا في ظله.

وكنت قررت الهرب نهائيا، ولكنني قلت: هـا هـي قـد حملت، وربما يمنعها ذلك من غوايتها. ولكـن أذان الفجـر ينطلق، وأصوات المرحاض، ودفق الماء، فأسـمع خطوهـا

الحذر وأشم رائحة عطرها وتأتي بأصواتها اللاهثة، تقتـرب وترفع جانبا الوسادة، وتسعى يدها المتوترة المبلولـة فـوق شعر الصدر وأكتم أنفاسي، وأفتعل النوم، دافعا يدها بقوة إلى بعيد، وتقوم، لتنضو عنها جلبابها وتسحب يدها ثيابي عنـوة وأرى لحمها في القميص الزاهي، وأرى انتفاخة البطن تحته، فترتد الرغبة، ونقوم منتفضين على دفعة الباب القوية لنجـد العجوز مفكوك العباءة، بيده الخشنة الغليظة ومن وراء شاله المحاول أرى الشاربين العظيمين للأخوين، بعيون مستطلعة دهشة.

كان يعرف ويكتم في صدره، لم يذهب هذه المـرة إلـى الجامع، بل انعطف إلى دار الأخوين وجرجرهما إلـى هـذه الحجرة ليكونا شاهدين على فعلنا الحـرام، ويبـرك علـي الأخوان، والعجوز الذي ذهب عقله يسـحبها مـن شـعرها المحاول إلى الردهة، ويكبس عليها بآخر أنفاسه وأنا مصلوب على الجدار، أتلقى الضربات من أربع أيادي حية، تضـمر قوة بهيمية مكمونة لهذا الصباح العـاهر، ويتنـاول أحـدهم السكين الذي برق في ضوء الصبح الوليد المطل من المنور، ويسحبني إلى المخزن.

وها أنا قابع يأكلني الرعب من ثعابين جهنم التي قد تنطلق على مد التبن القديم وتنهشني الخشبة من أسياخ محماة فـي النار المرتقبة، تنغرس في لحمي، فيهترئ، وتتساقط عظـام هيكلي لتكون نهاية عذابي. ما أزال أسمع صريخها بالخارج، وأنظر إليها من خصاص الباب تتكالب عليها أصابع عجوزنا ناشفة ترفع يدي الهاون لتهوي بضربة أخيرة كأنها تريـد أن تقيء جنينها، ويدها في حرص مستميت ترفع بطنها، تجمعه في ضمة لتمنع السقوط، ويطغى علـى صـريخها صـوت الطرقات العنيفة واهتزازات البـاب الخـارجي وراء سـيل الجيران الذين استيقظوا على استغاثتنا ربما ينجحون في كسر الباب لينقذوها من اليد العظيمة التي تلفظ أنفاسها.

المحاولة

بعد أذان العصر، تركت الشوارع التي نامت فيها ظـلال الدور، واتجهت إلى طريق الإسفلت لأعبر الكوبري الصغير وأسير على شاطئ الترعة التي تدور من بعيد حـول البلـد، فأذهب إلى الجبانة، هناك الكافورة العالية التي ترمي ظلهـا على مقبرة الجد، على أول الجبانة رأيت السـاقية القديمـة بقادوسها الصدئ وخشبها الذي يعشش فيه السوس، طلعـت على مدارها، ونظرت إلى البئر الجافة، غاضت منها المـاء، فلم يتبق من أثرها إلا اخضرار الريم، وكنت على سور البئر وحاورت نفسي: أأسير من طريق الترعـة أم مـن طريـق المصرف؟ فأنا أخاف من شوارع الجبانـة ومـن أسـوارها المهدمة التي يطل منها الشجر الذي يطن بين أوراقة الذباب الأزرق الكبير.

لما رأيته من بعيد استأنست به، واخترت الطريق، كـان حافي القدمين، وذيل جلبابه بارز من الفتحة الجانبية، تظهـر سيقانه المشعرة مشدودة العضلات تحت ثقل الدلو، كان ينقل الماء إلى حفرتين أمام الشاهدين الكبيرين، ينبت فيهما صبار

محاط بسور من جريد الأقفاص. قلت له: سلام عليكم. رد السلام وسألني: على فين؟ قلت: أحفظ النصوص في ظلة الكافورة عند مقبرة جدي.

نظر إلي من الرأس إلى القدمين، ثم اقترب ليطبطب على صدري قال: الله يعينك.

لما وصلت مقبرة الجد وقفت فاردا كفي، ورحت أردد الفاتحة بهمس ووجد شديد، واقتربت من شاهده المعمم، وكلمته، قلت له: يا جدي.. لم أعد أذهب إلى دارك، فأخوالي قد دب بينهم الشجار، الخال الأصغر استولى على الدار وطرد الكبير الذي أسكن عياله حجرة بدار أصهاره وسافر ليجمع الفلوس التي تشتري له قطعة أرض يبني عليها دارا جديدة، يا جدي.. أمي تبكى عليك، وكل ليلة تقرأ على روحك الفاتحة، وتراك في المنام راقدا بقميصك الأبيض على سرير من الحرير الأخضر تحت تكعيبة العنب، وحين تقترب منك، وتبكي، تملس بيدك على شعرها وتأمر الأولاد الذين يرفرفون حولك بالأجنحة الشفافة، فيجمعون لها عناقيد العنب، وتمسح لها دموعها بطرف قميصك، وتقول لها: خذي.. خذي العنب للأولاد.

انتبهت على صوت قدمين تدوسان الورق الجاف المنثور بين المقابر، كان هو، يقبل مبتسما ومظهرا أسنانه الصفراء بين شفتيه الغليظتين اللتين ينبت حولهما شارب كثيف مشتبك بشعر الذقن الخشن، كان يجفف بطرف الجلباب الذي تركه ينزل ليستر سرواله البفتة، وظلت الكرمشة رافعة الجلباب عن الأقدام، جلس إلى جواري فوق المصطبة، وقال: جدك الشيخ عبد الله؟ قلت: آ.. قال: ونعم الناس. وسأل: وأنت ابن مين من أولاده؟ قلت: أنا ابن بنته. قال: آ.. ما شفتش جدك لما كان شيخا للخفراء؟ قلت: لا.

تنهد تنهيدة طويلة، ومد يده يخرج العلبة الصفيح من صداره، وراح يضع التبغ في الورقة الخفيفة وسألني: تدخن؟ قلت: لا.. قال: جدك كان صاحب أبي.. وأبوك كان صاحبه، وسألني: أنت لا تعرفني؟ قلت: لا..

ضحك ضحكة طويلة، انتهت بكحة أدمعت عينيه، مد إصبعه وعصر جانب العينين وقال: أيام بعيدة، وسألني: عندك كام سنة؟

قلت له: أذاكر الإعدادية. قال: ما شاء الله.

ودلك فخذي بنعومة حركت دبيبا خفيفا في دمي، انتظرت أن يرفع كفه، ولكنه لم يفعل، وحين نظـرت إليـه بحـرج، واجهتني عينه الجريئة، تنظر إلي بابتسام خبيث.

انتفضت العضلات تحت سخونة كفه، فزحزحـت سـاقي لتنفلت من قبضته، رفع كفه وأمسك بها السـيجارة الملفوفـة وقدمها إلي، قال: خذ نفسا. رددت بحسم وبخوف: لا أدخن. قال: دخنت الجوزة وأنا أصغر منك. فلم أرد.

وبدأ يحكي عن أبيه، قال إنه تاجر القطن الشهير الذي لم تعرفه أيامي، وإن كان يعرفه جيل أبي، كان ثريا جدا، يملك الدار الكبيرة المسورة بسور عال، تطل منه أشجار المـانجو والجوافة التي تظلل حديقة واسعة في مدخل الدار، وتكعيبـة العنب، تحتها الطلمبة وسط الحوض، ماؤها يـرد الـروح، والمضيفة الواسعة المفروشة بكنب، وإخوته وأخواته وأمـه الطيبة التي لا ترفع الطرحة البيضاء عن رأسها. كانت تلقى الاحترام من الجميع، ويدعونها "الحاجة. " برغم أنها لم تحج، وأبوه الرجل النزيه كان يرتدي المعـاطف الكشـمير علـى الجلابيب الصوف، وطربوشه الأحمر، وأدمعت عيناه حتـى سالت الدمعة على شاربه، وقال: لهذا ستجدني قد حرصـت

على أن أجعل لشاهده طربوشا أحمر، وأحرص على أن أظهر مقبرته هو والحاجة بالنزاهة التي تليق بمقامها، وكنت قد نسيت فعلته، واندمجت في الحكاية، وسألته بشغف: وبعدين.. فأنا؟

ورد يحكي عن الموسم الذي أضاع ثروة أبيه، وانهيار بيتهم، وموت الرجل الكبير بالسكتة وموت أمه الذي أعقبه بفترة قصيرة، وحياته في القطار يبيع الكازوزة في الصيف واللب والسوداني في الشتاء، وهجرته للبلد، ثم عودته إليها برغم أنه لا يملك فيها قيراطا غير هذه المقبرة الفارغة إلى جوار مقبرة والديه.

سألته: يعني أنت تبيت هنا؟

لف ذراعه حول ظهري، وشدني لأقوم، وقال: تعال أريك بيتي، وقمت معه، ولم يرفع ذراعه أبدا، حتى وصلنا عند الحفرتين الممتلئتين بالماء.

كانت الشمس قد غابت عن السماء، وانعقدت في الجو كتل الغبار، والحقول من بعيد بدت فارغة، والزرع صار ممتدا في وحدته، والشواهد صارت موحشة ومخيفة.

سـألت الرجـل: ألا تخـاف عفاريـت الليـل؟ قـال: ما عفريت إلا ابن آدم. وطلب مني الـدخول فـي المقبـرة الفارغة، كانت مبنية بالطوب الأحمر ومفتوحة أرضها على السماء ومفروشة بالرمل النظيف.

قلت: إنني أراها من هنا. قال: لا.. حين تدخل ستشـعر أنك في بيت حقيقي. وضعت الكتاب على السور، وأشـرت إلى الشاهدين: هنا أبوك وأمك؟ أضاف: وإخوة صغار ماتوا من زمان.

وسألته: كلهم ماتوا؟ قال: لي إخوة تعلموا مثلـك، واحـد منهم لم أره من عشرين سنة، حصل على شـهادة الجامعـة وسافر إلى الخارج، دفع أبي عليه دم قلبـه، ولكنـه النـاكر للجميل، لم يسأل عني مرة.

وزحزح الكتاب من على السور فسقط في الداخل، وقال: ادخل.. ادخل. انحنيت لأمرق من الفتحـة المبنيـة بشـكل محراب الجامع، غاصت قدمي في الرمل فتراجعت، ولكنـه دفعني من خلف، فكدت أسقط على وجهي، وقـال: ادخـل. قلت: تمسيت والدنيا حتضلم. قال: بِت معي الليلة.

قلت: لا أقدر. قال: أعمل لك شايا.

ورأيت مقطفا مركونا إلى جوار الحجارة التـي يجعلهـا وسادة للنوم، قال: كنت أتمنى لو تزوجت وأنجبت ولدا مثلك، ولكني لم أتزوج أبدا، كان أبي قد قرر تزويجي فـي نفـس الموسم الذي خسر فيه صفقته، وأنت ألا تتمنى أن تتـزوج؟ قلت: لما أنهي دراستي.. أفكر في الزواج.

وسألني: عمرك ما نمت مع امرأة؟

فاجأني السؤال، فملت برأسي إلى الأرض، رفـع ذقنـي بإصبعه الململمة، وواجهنـي بـالنظرة الجريئـة، وقـال: لا تنكسف.. قل الصراحة. قلت: لا والله.. أبـدا. ألـح فـي السؤال: بذمتك ودينك. قلت مؤكدا: أبدا.. أبدا. قال: ولا نمت مع أولاد صغار؟

انتفض جسمي، وبدأ العرق يتسرب من مسامي، فرفعـت إصبعي لأمسح جبهتي فواجهتني نظرته الثابتة. قلت: أمشي. أمسـكني مـن ذراعـي وقـال: لسـه بـدري.. هـه.. ولا أولاد صغار؟

قلت: لا والله. قال: عيني في عينك.

لم أرفع وجهي إليه، وهو مال برأسه، وأطل علي من أسفل مبتسما، وقرب وجهه مني حتى شممت رائحة فمه، وسألني وهو على حالته: ولا مع حمارة؟ أو كلبة؟

قلت: أريد أن أمشي.

قال: أجب على سؤالي أولا.

قلت: أبدا والله.

قال: زي حالاتي.. عمري ما عملتها.

سألته: عملت إيه؟

أجاب: النوم مع أحد.

ثم واصل كلامه: ما رأيك؟ سألته: في إيه؟ قال: ننام مع بعض الليلة.

انسحبت بجسمي إلى الوراء، وحاولت أن أملص ذراعي منه ولكن أصابعه كانت قد ماتت على زندي، وبيده الأخرى أخرج مطواة من صدره، فردها بنطرة واحدة، وقربها من عنقي. قال: قلت إيه؟

كان قلبي يخبط بعنف على صدري، والعرق سال من كل جسمي، قلت له: حرام عليك. قال: مفيش فايدة.. حدبحك.

قلت له: لا أقدر. قال: حاول.

سكت فترة طويلة، والمطواة تحوم حول وجهي، وهو قـد عض على أسنانه الصفراء، وسأل: هه؟؟ قلت: أمي تسـأل عني: قال: قل لها كنت أذاكر مع زميل.

وأتى بالطوب الذي يجعل منه وسادة للنوم، وسد به فتحة المقبرة، وشد المقطف، أخرج منه خلقات قديمة، وكون منها وسادة لرأسه، ثم أخرج وابور الجاز والكنكة، التفـت إلـي وقال: أعمل لك شايا.

ركن عدة الشاي، وذهب إلى الركن الآخر كاشـفا عـن مؤخرة يتناثر عليها شعر خشن، يخرج من عجزه في خـط أسود إلى ظهره حتى يختفي تحت الجلباب المشـلوح، لـوى رأسه نحوى وقال: هنا الكنيف.

وقفت منتصبا، ورأيت في وقفتي رءوس الشواهد تطل في تطفل وطربوش أبيه الأحمر كان قريبا ودافق الحمرة مخفيـا رأس الشاهد المجاور، وقلت في نفسي: الآن هـو مشـغول بخرائه.. وهذه فرصتك وفي قفزة واحدة كنت ممسكا بطرف الطربوش، قافزا أمامه، داست قدمي الحفرة المبتلة، فرفعتها من الطين، وارتميت على الطين، وشعرت بحريق النار فـي

صدغي، ولكن قمت شادا كل عضلاتي، أجري في منعرجات شوارع الجبانة الضيقة، وهو كان في عفرة التراب يصـرخ من ورائي: حدبحك يا ابن الكلب.. حدبحك.

والمطواة كانت في قبضته، وسرواله الساقط بين سـاقيه يرفعه بين الحين والآخر، وكنت لا أرى شيئا أمـامي، لقـد صفرت الريح في أذني، وعلى طول الطريق كان النـاموس الذي هاج مع قدوم الليل يضرب وجهي.

التجلي

حين طردت النفس الأخير، وسكن صدرها، انسحب ضوء العين، صرخت النسوة ومدت واحدة منهما إصبعين يسـبلان الجفنين، ويسدلان الطرحة البيضاء على الوجه الذي صـار أصفر بلون المصباح المعلق على الجدار.

مسح الخال دمعتين بطرف كمه وقال: يا عيني عليك يـا أختي. قبل ذلك بيومين وحين وصلت البلد مساء، كان بقلبي شوق شديد للقاء البنت التي أحبها، لكن أمي قالـت: خالتـك مريضة.. واجب تزورها.

قلت: لا أحبها. قالت: عمرها ما غلطت فيك.

دفعت الباب الموارب، ودخلت عليها غرفتها، كانت وحيدة في فراشها، الغطاء على نصف ساقيها وشـعرها منكـوش يختلط فيه الشعر المصبوغ بالحناء بشعر عليه بقايا صـبغة سوداء، التفتتْ على دفعة الباب، وكانت عيناها غـائمتين لا تريان غير الدخان، سألت: من؟ قلت: أنا يا خالة. قالت: ألـم تعثر على ابن خالتك في مصر؟ قلت: يا خالة مصر واسعة.. غدا يجيء. قالت وهي تبكي وكانت ترفع ذراعا تماس بهـا

علـــى شـــعرها ووجههـــا وترميهـــا بعيـــدا: يا وابور يا بو عجل حديد.. هات لنا الغرايـب مـن بـلاد جديدة.. دخلت أمي، افترشت الحصير، وأسندت ظهرها على الكنبة، شقت برتقالة نصفين وناولتني نصفا، قالـت: ناولهـا ربما تأخذ من يدك. أخذت نصف البرتقالة، قربته من شفتيها، فاصطدمت به، قالت: برتقال؟ قلت: مصـيها. قالـت وقـد أدارت وجهها جهة الحائط: لا.. لا أريد.. نفسـي لا تقبلـه. تركتها مع أمي، وخرجت أبحث عـن الصـحاب، لنقضـي سهرتنا – كالعادة – على غرزة "العربي" قلت لهم: خـالتي مريضة. قالوا: ربنا يشفيها.

حضرت زوجات عمي والجارات لابسات الهدوم السـود، بحثت بينهن عن العيون التي أحبها، وأشتاق إليها في بـلاد الغربة، صوتن كثيرا وبكين قليلا، نوحن وقلـن فـي نفـس واحد: يا خراب بيتك يا حبيبتي.

وكانت أمي قد قامت تجمع هدوم الخالة، تعقدها في صرة ناولتها لأختي لتذهب بها إلى دارنا، لما عادت جمعـت مـع أمي الدجاج الذي تكوم في ركن مظلم عند الفرن، ورفعتا معا صورتها عن الجدار (كانت تبتسم بوجه أبيض بلون الحليـب

ملفوف في طرحة خفيفة شفافة يظهر من تحتها منديل رأسها الأسود) النسوة سكتن مرة واحدة، وانتشرن علـى الحصـر يمصمصن شفاههن، كانت تخرج منهن أصـوات مكتومـة متشنجة، ثم بدأن يحكين عن أمواتهن، ويذكرن أنها كانت نعم الجارة، نظيفة طول عمرها، عايقة، تحب الثياب الملونة، ولم ترفع طرحة الصلاة عن رأسها منذ أن مات زوجها، لا تأكل إلا اللقمة الحلوة، وقلن إن ابنها هو الذي كان شرسا وحشاشا وخمورجيا، كان يكسر لها الصيني والمرايا ولم تسـترح إلا حين غادرها إلى مصر، ودعون الله أن يهديـه، وأن يـرحم أمه الطيبة، لما بدأن يتململن طلبت أمي منهن أن يعدن إلـى بيوتهن لأن أزواجهن وعيالهن في حاجة لهن، أما هي فقاعدة وأنا معها، ودعت الرب بأن لا تمشي لهن في مكروه.

بقيت أنا وأمي وحدنا مع الخالة التي سترها الغطاء مـن الرأس إلى القدم، جلست أنا بين القدم، وجلست أمـي عنـد الرأس ساندة خدها على كفها، أغفت قليلا، ثم انتبهت فجـأة تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. وطلبت مني أن أساعدها في تقليب الجثة خوفا من الرائحة التي قد تنتشر منهـا، رفعـت الغطاء فبان وجهها، وانكشف فخذها، قربت أمي عينها مـن

وجه الخالة مدة طويلة، بعدها وجـدت ملامحهـا انكمشـت وانفرطت من عينيها دموع غزيرة، وبكت بصوت عال لـم تستطع منعه، وراحت تعدد:

ديري المخدة يمين

مانتيش غشيمة يا بنتي

زاد على النين

ديري المخدة شمال

مما نتيش غشيمة يا أختي

زاد على الحال

أنا الذي حافظت على دموعي بكيت بكاء حقيقيا بـدموع وحزن شديد شعرت معه بأن جسدي يتطهر، ورأيت – فجأة – أن خالتي في نومتها هذه مظلومة، بل اكتشفت مرة واحدة أنها كانت طيبة جدا، وأنها كانت تحبني كابن لهـا، مسـكت كفها التي صارت عروقها زرقاء تتفرع في جلدها الذي فقـد لونه.

نامت خالتي في طاعة على جنبها الأيسر، لملمت ثوبهـا، وسترت فخذيها، وجمعت فتحة الصدر بالدبوس الـذي كـان

مشبوكا في جانب واحد، حين ثقلت رأسي رحت في غفـوة قصيرة.

(رأيتني صغيرا جدا بين يدي الله الجالس علـى عرشـه المضيء، على يساره سور عال تطل منـه ألسـنة اللهـب المرعدة، على يمينه سور عال تطل منـه أغصـان العنـب المثقلة بالثمار) انتبهت بعدها على صوت المؤذن: سبحان من تسمى قبل أن يتسمى.. سبحان من كان عرشه على المـاء، سبحان من علم آدم الأسماء.

شعرت – في الحال – أن خالتي نائمة، وأنها سوف تقوم من نومها حين يطلع نور الصبح.

في الصبح أحضر الرجال المغسلة، أدخلوها حجرة الكنب بعد أن رفع ووزع في الشارع يقعد عليه المشـيعون، أمـا النعش فقد ركن أمام الباب، في جوفه كـان اللحـاف يلمـع حريره الأحمر، وباقة ورد ذابلة ثبتت فـي المقدمـة عنـد الرأس.

أخرجت خالتي من بين الضفلتين لفة بيضاء معقودة مـن كل جانب، فاحت قبل أن تطرح الخشبة رائحة عطر عتيـق، تركنا أختي وحدها في دار الخالة، بينما سرت أنا في المقدمة

مع الرجال يتأبطني صاحب كان معي في الغرزة أول أمس، والنسوة هرولن في أعقابنا بعد أن صوتن كثيرا عندما أطلت اللفة البيضاء من الباب، وعندما توقفت خشبة الميتة، وحرنت من الرجال تريد أن تدخل الدار، قالت النسوة: يا وابور يا بو عجل حديد.. هات لنا الغرايب من بلاد بعيد.

عقب صلاة العصر حضر الشـيخان، دخـلا المضـيفة، ووقفت أنا في الصف مع الرجال أستقبل المعزين يقولـون: عظم الله أجركم. وأرد: شكر الله سعيكم.

بينما النسوة في دارنا قد أوقدن النار، وصففن عليها أواني ممتلئة باللحم الذي أحضره الخال من جزار القرية المجاورة، وبالبطاطس التي اشتريتها أنا من السوق.

قلن إنه حينما وصل مع زوجه اللابسة السواد، صـرخت النسوة في وجهه وجددن البكاء الذي نزفنه في الصبح، فمـا كان منه إلا أن سبهن جميعا وطلب منهن أن يخرسـن وأن يرحن إلى دورهن، فالميتة هي أمه وليست أم أحـد غيـره، وأكدن أن عينه كانت حمراء بلون الدم..

أما أنا فقد رأيته وأنا في الصف بين الرجال مقـبلا عنـد أول الشارع بوجهه الضاحك لا يظهر عليه حزن.

وقالوا: إن موت أمه لم يهزه، بل لقد كان فرحـا، فهـو سيرث الأرض التي سيبيعها للغريب، ويقعد في الـدار مـع زوجه التي لا تلد أبدا، وسيرتاح من أمه التي ضربها كثيـرا وكسر القلل في وجهها، وطعنها بالسكين حين طالبتـه بـأن يعود للوظيفة ويدع لها الأرض ترعاها.

سلم علي، وقال إنني قد أوحشته. وكيف أكون في مصـر ولا أزوره في بيته وهمس في أذني أن بجيبه تعميرة نظيفة، وأننا سوف ندخنها عقب هذه الزيطة التـي لا داعـي لهـا، ووقف إلى جواري في الصف يمد يده للرجـال، فـي التـو انتشرت رائحة الكحول من جوفه، فتركت الصـف ودخلـت عند النسوة آكل طبق بطاطس أو أرز فقد شـعرت بجـوع شديد.

هناك عثرت عليها بينهن تخرط البصل، ودموعها غطت العينين الجميلتين، وسالت على خديها اللذين طلع عليهما ورد أحمر، ابتسمت لي وهي تزيل الـدموع السـاقطة، نسـيت الجوع، وحاولت أن أصل إليها قالت لي حين حطت الإنـاء على الفرن: الليلة.. في نفس المكان.

في أول الليل أشعلنا النار، وجلسنا في الغرفة التي بـآخر الدار، حين كان يرص الحجارة ويمد لي يده بالغابـة، قـال النكتة التي أضحكتني، وغطت على تشنجات النسوة المكتومة في حجرة الكنب.

في آخر الليل كنت بين الجدارين المهدومين في انتظارها.

حلم "أبو عطية" القديم

في الحجرة الرطبة رقدن، في كتلة الظلام الأبدية كانت حركاتهن المحدودة ما بين الردهة والباب والشارع حيث يجتمعن بباقي الصبية فتغنيهن الكبرى ما حفظت من أغان..

ولأن العيون مطفأة – لا ترى حلاوة الدنيا – مرقت كبراهن من طفولتها إلى مراهقتها إلى سنها الحالية دون أن يأتي ذلك الرجل الذي رأته – عبر ليل كثيف – قادما ليروي جفافها بذكورته..

والأختان الصغيرتان تتبعانها (لأن العيون مطفأة) وكل مساء ينتظرن العجوزين.. وكل مساء يرقد العجوزان إلى جوارهن. يلتصق الجيدان.. وفي شوق ينتظران. و (الدولاب) يدور.. بين القدمين يدور، والطين يتخلق بمس اليدين المعروقتين. و (نعمات) تجيء وتروح ما بين (الدولاب) والحصى المفروش تحمل ما صنعت أصابع زوجها لتعرضه للشمس الساخنة.

والعقل الذي تحويه الجمجمة العجوز المضمومة بالطاقية الصوف يدور، واليوم ينتهي حين تغرب الشـمس، ويـأتي غيره حين الشمس تشرق.

قالها لنفسه كثيرا "غدا ينفرج الحال" وحين قالوا لـه أول مرة "مبروك" كان سعيدا، ولما دخل على (نعمات) الشـاحبة المرهقة، قالت: بنت يا (أبو عطية)، كان سـعيدا، وأرضـى نفسه الغيـر راضـية "كلـه مـن عنـد الله" لكـن العـين لا ترمش حين تتحرك أمامها الأصابع، تظل على حملقتهـا الجامدة عند تحولها من الظلمة إلى النور البـاهر.. عـرف عمياء. حزنت (نعمات) الجاحدة، أما هو فـي باطنـه كـان راضيا، يجمع التراب الناعم، ويحمل صفائح المـاء ليبللـه، بقدميه يلوكه، ثم ينقيه من الطوب الدقيق، ليرفعه – بعد ذلك إلى (الدولاب) كتلا صغيرة.. فيدور بـه.. وبـين أصـابعه تتشكل (المتارد، والأباريق، والمواجير).

تحملها (نعمات) حيث الشمس الساخنة. ثـم (الفـاخورة) الملتهبة، يقف إلى فوهتها يدس الحطـب الجـاف، ويرتفـع الدخان كثيفا يملأ الدور القريبة، يحمر الفخار ويبرد.. يـأتي (برهم) ليرفعه إلى عرباته الكثيرة.. يلـف بـه الأسـواق،

والقروش الكثيرة تنفخ كيسه الكبير، والقروش القليلة تبقى في يد (أبو عطية) والطعام يأتي حين تأتي القـروش. فتزدهـر الحجرة الرطبة بها، لكنها تكلح لما تقل في صدر (نعمات).

وحرقة أخرى، ودورة أخرى ما بـين التـراب والطـين وصهد النار.. و (الفاخورة) تشتعل لتطفأ، ومن بطنها يخرج الفخار محمرا ليرصه على عربات (برهم) يومها قـال لـه: أنجبت بنتا.. ولما لم يرد أكمل: غدا تكبر فيضاف إلينـا فـم جديد، وأنا في حاجة إلى زيادة.

ضرب الحمار، وأمر الحوذي بالمسير، التفت إليه: لـيس هذا وقته يا (أبو عطية) ثم إنني زودتك حين تزوجـت، ولـم يمر على ذلك عام.

في الحجرة الرطبة تمدد إلى جـوار (نعمـات) والجسـد الريان ينفخ لهيبا كفوهة (الفاخورة) وقالوا له – ذات يـوم – مبروك.

كان يحلم بالولد، لكن الولد لا يجئ لأن (أبو عطية) يعاند الله، وعرف أنها كأختها عمياء، قالوا له: لأنها قريبتك تـأتي خلفتك عمياء.

وأغروه بالزواج من غريبة. و (نعمات) الطيبـة يحبهـا، واليد الفقيرة عاجزة، زار (برهم) في داره، قال: بنتـان يـا معلم.. جئت أتوسل إليك.. القروش لم تعد تكفينـا، الكبيـرة تأكل والصغيرة تكبر مع الأيام.

فتل شاربه، ورشف الشاي قال: يا (أبو عطية) ماذا أفعل أنا والسوق راكدة. عرض عليه فكرتـه: أعطنـي الفخـار "الشُرك" وحين انفضت الجلسة، وافق على نصفه.

والليل يأتي بالظلام، وقبل الظلام تنتهي الأعمال. فيغتسل في الطلمبة، وينزل الطين الذي علق بساقيه وقدميه، ويـدخل جسده في الجلباب النظيف، والحجرة الرطبة بها المصـباح الصغير، تصبح ظلماء حين ينطفئ وفوهة (الفـاخورة) فـي جسد (نعمات تلفحه باللهيب الذي يبرد حتى ينـام والرضـى يشمل بدنه النحيل. دخل عليها يوما – كانت تلقم الطفلة ثديها – جلس في ركن، انتبهت إليه قالت:

- ما بك يا (أبو عطية) لم يـرد، وحـين ألحـت أجابها:
- (برهم) رفض. طلب منـي إذا أردت زيـادة أن تعملي معي.

قالت:

- وماله؟
- والعيال؟
- لا تخف عليهم.
- ... ...
- (أبو عطية) ماذا تقول عني؟ هذه ثالث طفلة عمياء.
- أتخوضين في الله.
- ولكنك في حاجة للولد، فتزوج غيري إن شئت.
- لما أجد الطعام لنفسي.

والصمت ساد، وانطفأ المصباح، لكن الفوهة لم تعد ترسل نارها، اقترب منها، التصق، عرف أن النار فيها لكنه استدار، ونام.

شمرت جلبابها، عقدته، صفت كتل الطين، فرشت الحصى، فوقه رصت ما سوته يدا (أبو عطية).. تطلع إليها (كان سعيدا) في جسده تشتعل النار من أجلها. لكن الخوف ناره. قالوا له: لا تقربها فإنه لا جدوى ستأتي الرابعة عمياء.

و (نعمات) تدلق الماء على الجـذوة إذا صـحت فيهـا، والجذوة لا تخبو، تظلم الحجرة، وتبقـى العينـان يقظتـين، والخفقان يرسل الدم الحار في كل الأنحاء، تطلع إليها، عظام الترقوة برزت، والثديان تفرقا كجلـدتين لا داعـي لهمـا، والصدر ازرقت عروقه الكثيرة الدقيقة، والأخـوات هنـاك حيث الرطوبة يكسو أجسادهن اللحم الطري.

والحسرة في حلق (أبو عطية)..

والحسرة في حلق (نعمات)..

ولا يقدر أحدهما أن يقول للآخر: إن العرسان لن يقبلـوا على بناتنا.

والحسرة تزيد..

لأن لحم الكبرى يموت، والأثداء التي كانت يوما منتفخـة ضمرت، والشارب تحت الأنف، وبرزت الأسنان، والعيـون ظلت مطبقة على ليلها.

لكن (أبو عطية) كان يراه صغيرا أول الأمر يحبو..

وحين كان ينظر إلى زوجه رآه، يذهب في طريقها ما بين (الدولاب) والحصى.

باليد القوية يرفع كتل الطين الكبيرة..

وبالرجل الراسخة يلوكه..

وكان يذوب..

وبالخوف يذوب..

وفوق الحصى يجف الطين الذي صنعه، يدخله (الفاخورة) يضرم فيه النار، أمام الفوهة يقف. يدس الحطـب، ويرمـى السـرس، والنـار تغـرد بالـداخل حمـراء وقويـة، و (نعمات) بجسدها أمامه، يشتهي النار في الحجرة الرطبة، والخوف يجيء لكنه هذه المرة لا يطفئها بينما الثلاث يرقدن إلى جانبهما، وراء الظلمة.

مكان للنوم

قال لي صاحبي ساكن المدينة: أسأل لك عم أحمد بتـاع الشاي.

وتركنا المكان المزدحم بالناس والعربات ودخلنا شـارعا على ناصيته بائع الكفتة الواقف أمام الأسياخ يهب بمروحتـه على النار، فيملأ الحي بالدخان، وكان عم أحمد على الطرف الآخر واقفا على طوبة كبيرة يكبس وابور الجاز الذي سـود بدخانه كلمة مكتوبة بخط غليظ فوق الكشك.

قلنا: سلام عليكم.

والتفت بوجهه البشوش الأسمر، ثم نزل علـى الطوبـة يمسح يده بكهنة قديمة: نهاره أبيض. وسلم علـى صـاحبي بحرارة وود، ومسح لنا الكرويتة المركونـة تحـت حـائط الجامع، لما شمت أنفي الرائحة الكريهة، تلفت حولي، رأيت الشبابيك الصغيرة المنسوج عليها عنكبوت قـديم، والجـدار الراشح حتى نصفه، عرفت أننا نقعد أمام حائط الميضة.

وقال عم أحمد: وشك ولا القمر.

ورد صاحبي: مشاغل يا عم أحمد.

وطلع على الطوبة، غرف من البستلة كوز ماء، دلقه في البراد، وكبس الوابور مرة أخرى، ورحت أتأمـل الشـارع، والبنات الجميلات، والعيال الذين يعفرون المكان بلعب الكرة، والميدان خارج الشارع يهدد بالعربات والزمـامير، وبـدت زاوية كبيرة من مئذنة الجامع المطل على الميدان.

قال صاحبي: الأستاذ كان زميلي في الجامعة.

بص لي عم أحمد وقال: يا مرحبا.

وقال صاحبي: من الشرقية.

صب الشاي في كوبين، ولما ناولني الكوب قال: أجـدع ناس. وتكلم صاحبي في الموضوع، وعرفه بأنني أبحث عن غرفة أقضي فيها مدة التجنيد. وعرفه بأنني سـكنت بـالحي وراء الجامع الكبير، وتركت السكن حين أنهيـت الدراسـة والآن أنا محتاج لغرفة، وبالغ صاحبي في الموضوع، وقـال إننـي ابـن نـاس ومـن الأعيـان فـي بلادنـا، ولا أدري إن كان الرجل اقتنع بي أم لا، لأنه سـكت حتـى رجع من دكان العجلاتي الذي يركن دراجاته على الرصيف المقابل، أحضر أكوابا فارغة، رجها في ماء الـدلو، وقـال

لصاحبي: بس خليل هو اللي يعرف الحاجـات دي. وسـأله صاحبي: وفين خليل دلوقتي؟

قال: تلاقيه في الجامع.

وصحبنا لندخل من باب الميضة، ورأيت الرجال يعـدون على الحصير وآخرين يقفون للصلاة، ورجالا يتوضأون فوق أسمنت الميضة، وصاح عم أحمد بصوت تردد صـداه فـي الجامع: يا خليل.

وسمعنا خليل يرد من المراحيض: أيوه يا أحمد. قال لـه: ناس هنا عايزينك. وخرج من الباب الذي انسحبت من فتحته جاكتة رمادية، كان يضع على رأسه طاقيـة مـن القمـاش الأبيض ووجهه أصفر بلون الكركم، وكانت أصابعه تقطـر الماء على البلاط المتسخ، رآنا فاتجه إلينا يخبط في الأرض بقبقاب خشب مبلول. سلمنا عليه من وسـط ذراعـه وقـال بصوته الناعم مخفضا وجهه إلى الأرض: أهلا يـا أسـاتذة. وقال عم أحمد بعد ما أشار إلي: الأستاذ غريب وعايز تدور له على أوضة. أدخل ذراعه في الجاكتة، ولما أراد أن يدخل الذراع الآخر. تاه منه، دار حول نفسه، ضبط الجاكتة علـى أكتافه، ثم أخرج منديلا كبيرا مكرمشا ليمسح به يده، جفـف

به وجهه وقفاه، وتركه هناك تحت الياقة، وقال: أنا خـدام..
بس المشوار بجنيه.

قلت: مفيش مانع. قال: عندي أوضة نشوفها ونرجع قبـل آذان العصر. وسرنا في الشارع الطويل، فوق شريط التـرام الذي يلمع في ضوء الشمس، وصلنا مقام الشـيخ المـدهون بلون أصفر، وبخطوط بنية عريضة، وقف خليل على شباكه، وفرد كفيه وقرأ الفاتحة، وقفت خلفه مع صـاحبي، ورأيـت الشاهد المكسو بالحرير الأخضر تنتصـب حولـه شـموع طويلة، ورأيت برايز الفضة المتناثرة فوق ظهـره وعلـى رأسه الكبيرة الملفوفة بعمة حمراء.

ودخلنا الشارع الضيق بالبيوت الصغيرة، كـان بـداخلها نسوة قاعدات، وعلى بلكوناتها الخشب المتشابكة غسيل يقطر الماء على الماشين، وخرجنا إلى الوسعاية، وسـطها شـاهد وحيد عليه لوحة رخامية وكتابة سوداء ودجاج ينبش جريـدة ناشفة، كانت الوسعاية مرشوشـة بالمـاء، وهنـاك علـى المصطبة رجال يدخنون الجوزة، وولد نحيف بشعر منكوش، كان يرص لهم الحجارة ويملأ الصفيحة الصـدئة بالحجـارة الفارغة، وبعيدا عنهم نام الرجل الذي يركن عصـاه ومـدد

ساقيه المربوطتين بقماشة، كانت المعزة تنسل فيها، وهـو لا يشعر تاركا نفسه للشمس المتسلطة على جسمه المخدر، وإلى جواره صبية تغسل مواعين، ثوبها مسـحوب عـن فخـذها الأبيض وقطعة كبيرة من سروالها تبدو على ناصـية، لـم أستطع أن أرفع عيني حتى طلعت المرأة السمينة المرتديـة الجلباب الملون من الحجرة المظلمة، كانت تـربط رقبتهـا بمنديل، وعلى رأسها إشارب أحمـر يتـدلى منـه الترتـر وخصلات من شعرها الأكرت وحلق كبير يهتز على وجهها القمحي، لما رأتنا مسحت يدها وركنت ظهرها على البـاب، اقترب خليل منها ووقفنا على جنب، ضربته علـى أكتافـه وقالت: يا واد سايب الجامع وبتلف؟ قال لها وهو ينظر إلـى الأرض: أكل العيش يا أم وردة. ومال علـى أذنهـا كلمهـا بصوت واطئ، دفعته بيدها الكبيرة، وقالت: ابعد يا متنيـل. وبص إلينا بخجل. ثم مال بوجهه إلى الأرض. وتركته واقفا مكانه، واتجهت إلينا ولمحت صدرها الممتلئ، كـان يطفـح على الفتحة البياض المحدد بوساخة وسواد، وسـألت: مـين اللي عايز يسكن؟ قلت لها: أنا. قالت: لو قربت شوية كـان عندي أوضة خدها أفنـدي زي حالاتـك. قـال صـاحبي:

معلهش.. مفيش نصيب. قالت: خليل يعـرف واحـد تـاني ياخدكم عليه.

شد خليل المنديل من خلف القفا، ومسح به وجهه، وقـال: أنا واخدهم على عبده. ودخلنا الشارع الضيق الممتـد مـن الوسعاية، مررنا على شواهد كثيرة مصفوفة بطول الشارع، وانشغلت بقراءة الأسماء المكتوبة وتواريخ الموت، وشعرت بكآبة ووحشة، وظلت عالقة بذهني آية ﴿**يـا أَيتُهـا الـنفْس المطْمئِنـةُ**﴾ المكتوبة على كل رخامة، ولما خرجنا إلى النور فرحت بالزحمة والناس الذين يسعون في كل ناحية، وماتـت الوحشة داخلي، عبرنا الشارع ومشينا في ظـل العمـارات وقلت لصاحبي: نشرب عصير.

وقفنا على باب الدكان، وانتعشت بالرطوبة التي تهل علينا من الداخل، بسمل خليل حين مد يده إلى الكوب فوق المشمع المبلول، شربه مرة واحدة، وعلقت على أنفه رغاو مسـحها بمنديله، ثم أعاده إلى قفاه.

وكان منكفئا على الرصيف وراء العدة، صندوقه مرقـع بمائة خشبة، علية الحديدة المثنية كأنها قـدم مقلوبـة وإلـى

جواره كيس قديم مدلوق من أحذية وشباشب حريمي وصنادل عيال، قال خليل: خلي عنه.

حط كفه على جبهته وضيق عينيه، واستمر مـدة حتـى سحب المسامير من فمه الفارغ من الأسنان وقال: عايز إيـه يا خليل؟ قال له: إزيك يا عم عبده. لم يرد عليه، انشغل بدق مسمار في حذاء معلق على الحديدة المثنية، وانحنـى عليـه خليل وأحاط كتفه بذراعه، وهمس إليه بصـوت مـنخفض بعدها التفت إليه الرجل، وضيق عينيه وكان وجهه الجـاف بأصداغ ممصوصة له شارب عليه صفرة الـدخان، كانـت تلمع فوقه قطرات ماء، وسأل: مين اللي عايز الأوضة؟

اقتربت منه، وربت بيدي على صـدري، وقلـت: أنـا. سألني: بتشتغل إيه؟ وإيجارها خمستاشر. وسـأله صـاحبي: فين هي؟ مسح شاربه بظاهر الكف، ورشف من شاي الكوب المركون تحت قدمه، وقال: شارعين بعد الشارع اللي قدامك. قال خليل: فوق السطح، مستقلة بنفسها، وبحمام جواها.

قلت له: نشوفها.

رفع الرجل إصبعه أمام وجهه وقال: خمسة جنية قبل مـا أقوم. نظرت إلى صاحبي بخيبة أمل، وقلت له: بينا نرجـع مفيش فايدة.

قال خليل: بعد العصر أشوف لك مكان تاني.

وعدنا لنقعد على الكرويتة تحت حائط الميضة، وعم أحمد قدم لنا كوبين من الشاي الثقيل، وكلمني: يا ابني أنا حسألك.

وسمعنا صوت خليل من الداخل يؤذن العصر، كان صوته رخوا، ليس بصوت الرجل الناضج، ومال صـاحبي علـى أذني وقال: سامع صوت خليل؟ قلت له: سـامعه، وضـحك وقال لعم أحمد: الظاهر خليل فيه لله.

نتر ذراعه وصعد على الطوبة وضحك ضـحكة كبيـرة أظهرت سنتين صفراوين بينهما فراغ وقـال: ربنـا يسـهل لخلقه.

وبدأت الشمس تختفي وراء مئذنة جامع الميدان، ورمـت ظلا طويلا دخل علينا الحارة، وأمسك عم أحمد الدلو ونثـر ماءه على الأرض، وارتفع صوت مذياع بائع الكفتة، وفجـأة رأيت "فهمي" يدخل الشارع، يحمل كتـابين تحـت إبطـه،

وحقيبته بيده، مر من أمامنا ولم يرني، فنهضت لأنادي عليه: فهمي. نظر إلي بدهشة وقال: مش معقول.

ركن الكتابين على الكرونية، وارتمى في حضني، قبلني، وارتاح دمي في عروقي، ونسيت هم المشاوير، أخذته مـن يده، وكان عم أحمد واقفا على الطوبة يبص علينا، قلت لـه: اعمل شاي مضبوط. قال: على عيني.

وسألني فهمي: بتعمل إيه هنا؟ قلت له ويده لم تزل نائمـة في كفى: انت اللي بتعمل إيه؟ قـال: أنـا سـاكن هنـا ورا الجامع. قلت له: أنا أعرف أنك كنت في الجيزة. قـال لـي: ما خلتش مكان. وكنت نسيت أعرفه على صاحبي، قام مـرة أخرى وسلم عليه، وقال له: لا مؤاخذة. وقلـت لصـاحبي: فهمي زميل كلية بس قبلينا بدفعتين. وقال صـاحبي: شـفته كتير في الجامعة لما كان يخطب. تنهد فهمي وقـال: أيـام ما تتعوضش.

وقصصت عليه الحكاية، وكيف أننا من الصبح نبحث عن حجرة، وعاتبني لأني لـم أذهـب إليـه، وقلـت لـه: أنـا ما اعرفش. وقال إن حجرته تحت أمري، لأعيش فيها كمـا أريد، وقمنا في التو، وتركنا خليل – الذي أنهى صـلاته –

قاعدا على الكرويتة ينتظر أن أطلب له شايا، واعتذر صاحبي وقال: معلهش ما أقدرش أطلع معاكم عندي مشوار، وأشار فهمي إلى البيت وقال له: لما تحب تزورنا تطلع السلم لغاية ما سقف السما يخبط دماغك، تبص يمينك تلاقي أوضتي.

وضحكنا ثم سلم علينا وخرج إلى الميدان، ودخلنا الشارع الآخر لنتجه إلى البيت المجاور للجامع.

كان بابه ضخما كباب الوسية، وبعدما عبرنا طرقة مظلمة، دخلنا في حوش واسع مفتوحة عليه أبواب ونوافذ بدت منها دوائر سرير وكنب مفروش وتلفزيونات أمامها ناس يتفرجون، دسنا الزبالة المبعثرة على أول السلم، وهش فهمي القطط الملمومة عليها، وصعدنا سلما ضيقا ومظلما درجاته متآكلة من وسطها وكأن جيشا غازيا قد مر عليها، على السطح كان النور الخفيف ما يزال يعم الدنيا، وصارت ضجة الميدان بعيدة، والسيارات ظهرت أمامنا من فتحة السور، وأشار فهمي وقال: هي دي أوضتى. سألته: لوحدك. قال: معي صديق من البلد وهو دلوقتي في إجازة. وأخرج مفتاحا صغيرا، أدخله في القفل المعلق في الرزة، وشعرت

أن الباب ضعيف لا يحمي شيئا بداخله، والحجرة مبنية بألواح خشب ومسقوفة بخوص ويتراكم على سطحها كراتين وأقفاص، ومن ناحية برزت مدخنة الحاتي الذي يفتح على الميدان تعفر السطح برائحة تغيظ.

في الصالة الصغيرة المعتمة رأيت وابور الجاز يتناثر حوله عيدان كبريت وأواني قعرها أسود ومركونة عليها أغطيتها، وترابيزة خضراء عليها أطباق بلاستيك، دفع فهمي باب الحجرة برجله، فاهتزت الجدران، وانهال على رأسي تراب من السطح، وكان بها سرير مراتبه غاطسة إلى الداخل وسرير آخر عليه ألواح خشب مصفوف عليها كتب، والحذاء كان باديا أسفل الألواح وكنبة فراشها ممزق، صعد فهمي عليها ورفع ترباس النافذة، وظهر النور مرة أخرى، وسمعنا ضجة الميدان دائرة كطاحونة. قعدت على الكنبة، وقرأت كلمة مكتوبة بطباشير على الحائط جهة الباب وابتسمت، وتأملني فهمي ثم نظر إلى الكلمة المكتوبة وقال: عشان ما انساش. وعدت بالذاكرة لأيام الدراسة، ورأيت في ضبابها فهمي عند سلم القاعة فوق كتف الزميل جامعا كفيه على فمه، وعروق رقبته كانت منفوخة عن آخرها وهو منفعل

ومتوتر والطلبة حوله يسمعون ويتناقشون وأنا بينهم مشغول بجراءته، ولم أك أفهم الكثير من كلامه، وكنت أسائل نفسي: معقول؟ طالب نحيل لابس قميص ألوانه باهتة، وجزمته نعلها متآكل عنده الجرأة يهاجم الحكومة برئيسها؟

وكان كلامه يسري في دمي، وكنـت أحـس أن عقلـي يطقطق، ينهض من ركدته ليتمطـى ويصحصـح، وأقـول لنفسي: دا أنا جاي من البلد جاهل، وكنت حين أتخيل نفسـي مكان فهمي، أرتعش، وتنهار ساقي من تحتي، وأقول: خليك هنا أحسن.. انت مش فاهم.

كنت أتمنى لو يصير صديقا لي، لما عرفته وجدته طيبـا وابن حلال وصاحب صاحبه.

خلع فهمي قميصه، وفرده على السلك المربـوط وسـط الحجرة وقال لي: قم اغسل وشك. قلت له: فين؟ أخرج يـده من الباب وقال: هناك فيه زير وحنفية. ولما رجعت وجدتـه يخرج لفات من حقيبته، فردها على الجريدة، وشد "حلة" من تحت السرير بها خبز، وقعـدنا لنأكـل، وكلمنـي، وحكـى حكايتهم حين أتوا هنا للقبض عليه، ستة ضـباط أصـغرهم بدبورتين، حاصروا السطح وأمروا مخبرين بالوقوف علـى

كل شباك والضابط الكبير دفع الباب برجله، ولم يجد غير صديقه الذي يشاركه الحجرة غاطسا في قعر السرير مستغرقا في سابع نومة، وسأله: زميلك فين؟ قال له: مسافر.

فتحوا الحقائب وأكياس المراتب وكسروا دولاب الخشب، أخذوا الكتب، وحين وجدوا صورة لامرأة عارية، تفلوا في الهواء وقالوا: وكما له في النسوان. وقطعوها، ودسها واحد منهم في عب صديق فهمي، ولما تمرد على ذلك، ضربوه على أصداغه، وربطوا عينيه بمنديل، وسحبوه معهم، وهناك أرادوا إجباره على الكلام، وفي النهاية ضغطوا عليه ليوقع على ورقة، وقالوا له: دا إقرار لما تعرف عنه حاجة تبلغنا.

وقص علي حكايات أخرى، وشربنا الشاي مرتين، ودخنا سجائر علبته السوبر، ثم تمددنا في قعر السرير، وفتح كتابا وقرأ لي، وأنا أسمع حتى سقطت في النوم.

في العراء

وماذا كنت أفعل بعد أن أكلت غـدائي الدسـم، ودخنـت الحجرين وجامعت امرأتي على سريري العريض هذا؟ أنـا سائق عربة الأجرة التي ألف بها وسط لحـم الزحـام فـي شوارع تختنق بالعربات الملاكـي والأتوبيسـات الممتلئـة بالأجساد الملتحمة.

لما تفرش الشمس ضوءها المستطيل على فرشتي أقـوم من نومي لآكل لقمة سريعة وأخطف نظارتي الشمسية مـن فوق "الكوميدينو" المكسور الضلفة، لأهبط السلم الذي انبرت درجاته، أهش قطط الجيران المشـغولة بزبالـة الصـفائح المركونة على البسطة.

وأستقبل النهار بسعلة تنفض بقايا المعسـل مـن رئتـي، وأحيي البقال الذي يقف وراء بنكه، وأصـبح علـى صـبي المقهى القائم على الناصية، وأعبر شريط الترام فأدخل هـذا الجراج الوسيع.

وأنطلق بعربتي لأدور وأدور.. يلفحنـي بـرد الشـتاء، فاحتمي منه بالكوفية والجاكتة القديمة.

ويرهقني حر الصيف فأستعين بمناديل الورق، وبقمصاني الخفيفة.

فماذا كنت أفعل؟ وأنا معتاد على العودة كل عصر لأجـد أطباق الطبيخ تنفث بخارها الشهي فوق الجريدة المفروشـة على الأرض، وأكون قد ارتديت جلبابي الخفيف، وشـطفت وجهي على حنفية الحمام الذي يشاركني فيـه هـذا الجـار الطيب، وزوجته النحيلة المعروقة، وعياله العفاريت الـذين يختفون كلمـا رأونـي طالعـا علـى السـلم، ليفـاجئوني بـ "بخ" فأفتعل الرعب، وأرفع يدي إلى أعلـى مستسـلما، ويخرجون من وراء السور المـنخفض مهللـين مبسـوطين برعبي، فأرفع اثنين منهم على ذراعي، ويمشي خلفنا الثالث ممسكا بطرف البنطلون كنت أود لو أمتلـك عيـالا مثلـه، يستقبلونني على البسطة صائحين: "بابا جه.. بابا جه".

فها هي امرأتـي تسـقط أجنتهـا، فرحمهـا ضـعيف، لا يقدر على رفع الثمار الناضجة، مرة واحدة، مرة واحـدة، مرة واحدة فقط، في السنة الثانية لزواجنا، رمت لنـا ولـدا، ما شاء الله، كان كأحد هؤلاء الملائكة المحلقين علـى دايـر السرير، وجه غض ممتلئ، وبشرة بيضاء ناعمـة، ويـدان

صغيرتان طريتان، وشفة حمراء تغري بالقبل، وما كاد ينطق "بابا" حتى اختاره إلى جواره، دوختني هذه الضربة المفاجئة على يافوخي، ولأنه كان من الصعب أن أفرغ مـن عملـي لحمله إلى البلد، حيث أدفنه – هناك - مـع جـده، رفعـه الحانوتي على ذراعه وسار به إلى مقابر "الغفير" وفي آخـر النهار جاءني ليقول: دفنته هناك في تربة واحـد باشـا، أي والله باشا، لشاهده طربوش أحمر كبير ورخامة مكتوب عليها اسمه بخط أسود، وقمت بالواجب، قرأت لـه الفاتحـة كمـا قرأت بعض الآيات.

وناولته أجره فقبله ورفعه إلى جبهته عددا من المـرات، وهو يقول: إنهم أحباب الله، وستجده هناك ليسـاعدك وأمـه عند المرور على الصراط. فماذا كنت أفعل يا هذا الحشد في الزقاق، يا هذه العيون المحملقة في النافذة لترى عريها. أكان من الممكن أن أتركها في الحمام؟ الرغاوي على عينيها وفي طبلة الأذن، فلم تسمع، ولم تر، وحدثتني نفسي: من الأفضل أن تنزل بها جسدا عاريا حيا يرفرف من الرعب بدلا من أن ترفع الأنقاض عن الجسد المحطـم وبـدلا مـن أن تتنـاثر أعضاؤه فتجمع من كل ركن قطعة.

وهل كنت أنانيا يوما ما، لأقفز من النافذة وحدي؟

وأتركها!

وهي التي استقبلتني حين عدت، رفعت هدومي المخلوعة عن السرير، وأحضرت لي الجلبـاب الأبـيض النظيـف، وفرشت الجريدة المطوية التي ركنتها فوق الوسادة ووضعت عليها بقايا طبيخ الأمس، وقال: معـرفتش أجيـب سـمك.. الجمعية موت، وعدت من الصالة أجفف وجهـي بالفوطـة، وجلسنا معا نبلع اللقم، وإحساس بالفراغ يلاحقنا دوما، فهناك الرغبة المزمنة، أن تمتلئ هذه الفراغات الممتدة بين فخـذينا المربعين بأولاد صغار.

فولدنا الوحيد استطاع – قبل أن يموت – الزحـف مـن حجر أمه، ليعارك ورق الجريدة، ويمد يده الصـغيرة إلـى الأطباق، وكنا نهشه بدعة، وتنظر إلي وأنظر إليها بفـرح. ها هو الولد يشاكس من أجل الوصول إلى الطبـق، ونحـن نمنعه، وأمه تهدئه، فتقطع له لقمة صغيرة مـن الرغيـف، وتبلل أطرافها من أحد الأطباق، وتمدها إلى فمه الذي يفتحه بغشم وتقول: هاااام. بعد أن حمدت الله، ودعوتـه أن يـديم النعمة ويحفظها من الزوال قمت لأضع الفحمتين على وابور

الجاز، وأغير ماء الجوزة، وفتحت ورقة السولفان الحمـراء وقطعت منها حجرين، يحركان الـدم، ويشـعلان الرغبـة العارمة.

دخنت وشربت كوب الشاي الذي صنعته، وطلبت منـي أسبرين، وقالت: دماغي حتنفجر، الشمس خبطت في رأسـي في الطابور.

وبحثت في جيب القميص لأخرج لها قرص الأسـبرين، فقلبته مع قليل من الشاي في قعر الكوب.

بعدها أغلقت شيش النافذة المفتوحة على السرير، وركنت ظهري على الوسادة، أستمتع بالنور الهـادئ، وبالرطوبـة الخفيفة، وأستمع للدم الصاخب في عروقي حتى زحفت إلـى الفراش، وتمددت إلى جواري، بعد أن حلت منـديل رأسـها وتركت شعرها مفرودا حول صدغيها، وزاد صخب دمي لما تحركت اليد إلى صدرها الذي دفق ببياضـة خـارج حـدود المشد.

وفعلنا كما يفعل الناس، ونمت راضيا عن نفسـي وعـن الدنيا، وقلت: الحمد لله. وبسـت ظـاهري يـدي، وقلـت: لا تطمع.. بكرة يعدلها.

نعست بعمق حتى سـمعت الضـربة القويـة وصـوت الانهيار، كأن الدنيا بدأت تنهدم، أو كأن القيامة قد قامت، في البداية فكرت أن الترام خرج عن شريطه ودخل في جـدار البيت.

ولكن صوت الأحجار التي تندفع إلى باب حجرتي نبهني بأن ما يحدث "هنا" في شقتي، بالدور الثالث من البيت القديم بكوم الشقافة.

حاولت أن أفتح الباب، فلم ينفتح إلا بصعوبة، كانت بعض الأحجار قد تراكمت خلفه أحدفها حجرا حجرا، فانفتح الباب، ورأيت السماء تسقف الصالة والحجرة الصغيرة التي نمـلأ فراغها بالنملية والترابيزة وأواني الطـبخ وطشـت الحمـام وأشياء كثيرة صارت جدرانها في الشارع ورأيت من خلالها الدكاكين والإعلانات والعمارات المقابلة والناس المـزدحمين على الأرصفة، ينظرون إلى أعلى ويصرخون: انزل.. انزل من الشباك.

قلت: أين "سعدية" زوجتي؟

وسمعت صوت وابور الجاز في الحمام ويدها خارجة من تحت الباب تدفع الأحجار.

فتحت عليها الباب فجأة، فصرخت، ودعكت الصابون عن وجهها، ولما رأت الفراغ الذي أرفعها إليه، رفست برجلها وصوتت بآخر ما عندها: يا لهوي..

رفعت الملاءة التي كنت أغطي بها جسدي ولففتها حول جسدها العاري وعلى ركبتي، زحفت لأنظر من النافذة المطلة على الزقاق، فوجدت رجل المطافئ يتسلق السلم الحديدي الطويل، رآني فأشار إلي: انزل.. هات إيدك.

قلت: معي زوجتي.

قال: طلعها الأول.

وحملت الجسد الخجلان الملفوف في الملاءة، كانت ترفس برجلها، وتبكي غارسة أسنانها في كتفي، وخبطتني على صدري كلتا يديها صارخة: لا.. لا.

وحدقت علي العيون المحملقة، حين طالعت الجسد علاها الابتسام الخفي، ورأيت الأولاد يتدافعون بالأكتاف، ويشبون على أقدامهم ليروا بشكل أفضل، وأنا ألملم أطراف الملاءة على صدرها المبعثر، وحول البطن وعلى الفخذين، وأمد يدي إلى رجل المطافئ ليلمها بذراعها على صدره، ثم أنزل

أنا بظهري. جاعلا أطراف الجلباب بين أسناني مبعدا نظري
عن وجوه الناس.

يوم للدود

الصبح:

كانت الشمس تتقد برءوسنا حين رأينا المهرة تنشق عـن كتلة الغبار البعيدة، قطعت البنات الغناء بعد إذ دارت عصـا العجوز الطويلة اللينة على ظهورنا وأفخاذنا.

صرنا صفا من الظهور المحنية المرعوبة، تبحث عيوننا – بعناية – عن الورقات المصابة. اقتـرب الغبـار تسـبقه المهرة المكتنزة، تعتليها القبعة السوداء والقميص الشـفيف، والسوط الأسود.

- اسكت. (قالت البنت التي عن يميني).

وكنت – من قبل – أحاورها. ولم أفلح – بعد – من التأكد ما إذا كنا سنلتقي عند الغروب، وكنت قد حددت لها المكـان في حوش المقبرة، سمعنا لهاث المهرة في ظل الصفصـافة النائمة، وضربات سيقانه بين الشجيرات، غطى عليه زعيـق العجوز، يسب ببهمة آباءنا وأمهاتنا.

الظهر:

سرنا بعرض أرض القطن الممتدة، يقطعهـا المصـرف، ماؤه عكر يطفو عليه الريم، ويسبح في بطنه الضفدع وكلاب البحر، بأعلى المصرف طريق عليـه طبقـة مـن التـراب المهتاج.

عند (السبيل) الذي جف ماؤه وتسلقته ملوحة التربة، قفزنا اختناقة المصرف إلى الطريق، تنتهي عنده مصاطب القبور، تعلوها الشواهد المدهونة بالجير والمنحوت على رخامها اسم الراقد في سبخه.

كان العجوز هناك عند الجسر بصحبة الملاحـظ، كـان يلاعب عصاه بالهواء، ويحادثه بحماس، وكنـا قـد علونـا مصاطب الطين، ودسنا مصطبة بحجم جثة طفل، لنصل إلى المقبرة العريضة الواسعة المشيدة بالطوب الكثيـف الأحمـر والأسمنت حيث نتكوم تحت الظل الكثيف لشجرة التمر حنة، بذورها ضاربة في لحم التربة تمص دم الموتى، وتتصـاعد فروعها خضراء ريانة بعيدا عن الفضاء تنشر الظل السكن، يطن في رطوبته الذباب الأزرق.

نشرنا المناديل المعقودة على الجـبن وقحـوف الكرنـب المخلل، وترددت بين المقابر الهمسات وصوت تكسر الخبز الجاف، ظهر العجوز والملاحظ مقبلين من جهـة الجسـر.. بينما كان ولد قد ترك منديله، وقبع هناك، عند الجذع كاشـفا عن ظهره، وولد آخر يتأمل كدمات العصا المنتشـرة علـى الظهر المزرق.

المغرب:

النخلة يمتد جذعها – المائل على السور المتآكل – إلـى السماء البعيدة، لينتهي بجريد جاف وسباط تتشبث به بلحـات ضامرات. وفرع الشجرة المخضر مفرود بعرض الحـوش تحلق بين ورقاته أطيار قل نظرها، وهناك في آخر الطرف كان خفاش معلق ينتظر القيام.

وكنت أنا بالداخل مع شاهدين لأحدهما طربـوش أحمـر يسقط على خلفيته زر أسود، والآخر رأسه بهيئـة امـرأة.. عيني على الطريق الملتوي بين الشواهد الطويلة والقصـيرة تنتظر جسها النحيل ومنديلها الأحمر يتناثر من جوانبه الشعر الطويل.

داست قدمي الورق الجاف فخشخش، وانتفضت سحلية كانت راقدة، جرت مذعورة إلى جحر في السور، اختفت للحظة ثم عادت تطل برأسها وعينيها المبرقتين. قلت لنفسي.

-إن خافت هي.. سأخاف أنا من الحوش المظلم ورءوس الشواهد المطلة.

(من قبل كنا قد التقينا بين عيدان الذرة حين أرادت جمع أوراق الملوخية، حين اشتقنا الرقاد في القناة الجافة بين الأحواض، فاجأتنا رأس صاحب الأرض الغاضب بالشارب المرتعش، جرينا وسط الزرع حتى انضممنا إلى الأولاد على الجسر، كانوا يخلعون الثياب ويلقون أجسادهم في الماء الرائق).

لما سمعت الصوت رأيت الرجال على كتف أحدهم فأس، والآخران شمرا الجلباب وقبضا عليها بالأسنان، يسيرون بهمة جهة الطريق الصاعد، وراء ظهورهم كان الغبار متجمعا حول جماعة يتوسطهم نعش يهتز، وينطلق من بينهم عويل نسوة يلطمن الخدود، ويثرن التراب.

خفت أن يتعرى القلب، وينكشف الشوق الحرام، أردت أن أطلق القدم للريح، لكني آثرت أن أدير لهم الظهر، ورفعت

الجلباب، أخرجت من ثنايا السروال بشري الراقـد، رحـت أخطط السور المتهالك بالبول، فامتصـت الحجـارة المـاء بشوق.

ضحكة الملائكة

- ١ -

اتجهوا نحو الطريق المسفلت حينما خرجوا من الجامع الذي يقع على أطراف البلد، على يسارهم كانت "الساحة" ينتشر على بساطها الأخضر أولاد يرتدون فانلات ملونة موزعين على ألعاب مختلفة، وعلى يمينهم كانت الشمس الكبيرة الصفراء تتوارى خلف أشباح النخيل البعيد، وكانت شمس أخرى تبرق على شريط السكة الحديد الموازى للطريق المسفلت، كانت هذه الشمس تسير معهم ببطء.

- ٢ -

نظر واحد منهم إلى الوراء، ولم ير غير التراب – الذي أثارته الدواب في رواحها – على بيوت البلد وسور السكة الحديد ومبنى المحكمة القديم، انضم إليهم فجأة، بعد أن انحرف بعيدا عن الإسفلت ليتفادى سيارة أقبلت مسرعة جعلته يثير زوبعة صغيرة من التراب النائم، وهم أيضا تركوا الإسفلت وساروا فوق التراب تحت الشجر الصغير المحاط بأقفاص من جريد.

قال واحد للآخر الذي يرفع على ذراعيه المنتصبتين اللفة الصغيرة المسدول عليها بشكير نظيف: خلي عنك شوية.

رفض الآخر وقال مصمما: خلاص.. هانت.

- ٣ -

بعد قليل تركوا الإسفلت كما تركـوا الكـوبري المسـور بالحديد وساروا بمحاذاة الترعة التي تنحـرف بشـدة جهـة القرافة، وقبل أن يعتدلوا تماما في الطريق الجديـد نظـروا جميعا مرة واحدة إلى أعلى الكوبري فلم يروا غير السيارات التي تمرق فجأة والشمس التي توقفت بعنـاد علـى شـريط الحديد ولم يسمعوا غير صوت الموتورات المتفجرة وصياح الأولاد وراء سور "الساحة".. والنسـوة المجتمعـات علـى الحنفية العمومية تركن الماء يندفق فـي فوهـات الجـرار وسترن سيقانهن العارية ووقفن متأملات.

وكانوا قد فقدوا الأمل في مجيئه تماما حينمـا اسـتقبلوا الشواهد القابعة في سكينة.

- ٤ -

ساروا وسط التراب المثار بين الشـواهد فـي شـوارع صغيرة ضيقة. كانوا يمرون على مصاطب كثيرة بها فتحات

مظلمة، عميقة الغور، ومجهولة. رأوا لمعة قفطان الشيخ ورأس الرجل الذي عقد خصره بحزام عريض. لما اقتربوا منهما قام الشيخ ونفض القفطان فانهال كثير من الورق الجاف ومد يده إلى اللفة الصغيرة وقال لحاملها: تأخرتم..

ومد له يده بالبشكير الذي رفع عن الجسم الملموم في كفن أبيض يحدد تكويرة الرأس وانتفاخة البطن وانتصابة القدم، وقال واحد من الرجال: كان لا بد أن ننتظره.. ولكنه لم يحضر.

ونزل الشيخ إلى الحفرة بحذر والرجل الذي عقد الحزام العريض على بطنه نزل وراءه وظل منحنيا مدة طويلة وعيناه مركزتان داخل الحفرة، أما الرجال الذين انتشروا على السور الواطئ فقد جلسوا يرقبون من بعيد وكل واحد منهم يرى جانبا من المشهد الذي يحدث بالداخل، ويتسمع لتراتيل الشيخ التي تأتي مكتومة، متعجلة.

- ٥ -

وقف واحد منهم حين رأى الرأس الأسود المتحرك وسط رءوس الشواهد الجامدة وجعل نظره مثبتا على بقعة السواد الغائبة في شحوب المغيب، ذلك أن الشمس كانت قد انتهت

كليا ولم يتبق من أثرها غير بقعة الدم الحمراء الكبيرة المعلقة على جانب سحابة سوداء.

وقال فجأة: أظن وصل.

فقاموا جميعا ينظرون ثم قالوا معا: هو.

والرجل الذي عقد الحزام العريض على بطنه كان قد وقف حين وقفوا ولما سمع تأكيدهم انحنى جهة الفتحة وقال للشيخ: انتظر.

- ٦ -

ظهر الجسم كله طويلا وسط المصاطب ضائعا بين الشواهد واقترب منهم فوضحت ملامحه المرهقة، ولما دخل الحوش الضيق ارتمى في حضن أول رجل وراح ينتفض في بكاء مكتوم، والآخر الذي احتضنه ظل يربت على ظهره ويشده إليه بقوة ثم رفعه أمامه وجعل الوجه في الوجه وقال له بثبات: اجمد.

- ٧ -

قال الرجل الذي حضر لتوه وهو يسحب منديله الخارج من جيب البنطلون: أشوفه. فشده الرجل نحو الحفرة وقال واحد من الآخرين: طبعا لازم تشوفه.

وأشار إلى صاحب الحزام العريض فانحنى فـي الحـال جهة الفتحة وسحب منها اللفة التي تهدل قماشها الأبيض من كل الجوانب فبدا الوجه الصغير الذي تشرب لون الغـروب، كان جامدا على بسمة ذابلة كتلك التي تحدث للأطفـال فـي نومهم وتقول عنها الأمهات إنهم يضحكون للملائكـة الـذين يلاعبونهم، ضمه الرجل بقوة إلى حضنه وقبله كثيرا علـى جبهته وعلى خديه وفوق أنفه ولم يتركه حتى أخـذوه منـه غصبا ليعطوه للشيخ الذي قعد متململا رأسه بالخارج وباقي جسمه العجوز داخل المقبرة.

- ٨ -

لما أهالوا عليه التراب كانت الظلمة قد حطت ثقلها فـوق الشجر وسكنت الطيور، ومن جهة البلد ظهـرت مصـابيح متفرقة نورها قلق وضعيف.

والأب الذي جاء متأخرا ظل منكفئا على المصطبة فـوق الفتحة بالضبط وهم كانوا قد تركوه لحاله وظلوا في جلستهم فوق السور الواطئ عاقدين الأيدي على صدورهم، والشـيخ كان قد ارتدى جبته وعقد شـال عمامتـه وجلـس ممسـكا المسبحة الطويلة بيده، ومن حين لآخر ينظر جهتهم ويتنحنح.

التحاريق

- أ -

خلع معطفه الميري الأصفر، مدده على كومة التراب، ألقى عليه حجرا.. وقف على الحافة، الأقدام غاصت في الطين اللين – عليه آثار حوافر، وحشائش وشوك جاف.

القدمان في العمق، والماء البارد حول الساقين.

"النهر الكبير يخرج من بطنه الماء إلى الروافد الكثيرة، والترع الصغيرة تجلب منها الماء، تجف حين تبقى في النهر الأكبر..".

الراحتان تجوسان في البقعة الفوارة بطين القاع.

"الجهد يذهب سدى دون سد".

من أمام قطع من طين الحافة، وصنع سدا.

الأشجار تحنو بفروعها الخالية من الورق، قطع بعضها منها للمعاكسة..

ومن خلف أقام سدا.

"الجهد يذهب سدى دون دلو.."

قبل البدء في النزح، صعد إلى الجسر، السواد الطين فـي ساقية حتى الركبتين، قرب البرسيم من الأشداق التي سـال عليها الزبد، نفخت الماشية، واقتربت في كسل، عدل الخيش على ظهورها.

نظر جهة المدينة.. لم يأت الحاج بعد، الطريق في امتداده يتمطى وحيدا، ونفاخ النار راقد في جوف الأرض، الريح لما تزل للقافز فوق الزروع وعلى رءوس الأشـجار، الكفـان المتلاصقان يحملان ماء ما بين السدين، يدلقانه.

"وراءك حتى المغرب يا صيدي الحلال..".

- ب -

في طريق العودة – قبل يومين – رأى صيادين في باطن النهر بشباك فيها سمك حي كبير وصغير، يبيعونه في سوق المدينة للكبار والصغار. في العمق زحفت اليدان بحذر.

في جانب عثرتا على سمكة "أيتها السمكة.. لست مرامي" رآه بظهره الأسود يسبح، ضرب سطح الماء، واختفى.

السماء انسدت بغيم أسود، الضوء الباهت المشبع بـالبرد شمل الحقول البعيدة والقريبة، تطلع يبحث عن الشمس تدفئ عظامه.

يجمع الحطب الجاف، يضرمه نارا في (راكية).

"على الجذوات يكون أكثر اشتهاء..".

عاود نزح الماء الذي لا ينتهي.

ذاب طين السد تحت ثقل الماء، قطع لـه مـن الحافـة، ضغطه بيده، دعمه بالكتلة الكبيرة، مرر الكف على سطحه، وجانبيه.. بدا متماسكا.

الكلاب يتشمم السمكة المنزعجة على الجسر، هـدده، لـم يهتم، رماه بطوبة لاصقة بباطن الترعـة، رجـع بظهـره للحظة، ثم حاول الاقتراب في تصميم، خرج إليه. لم يكـف عن رميه بالحجارة حتى اطمأن أنه لن يتجاسر على العودة، وضع السمكة المتربة في المنديل، جمع فتات الخبز المتبقيـة فيه، دفعها إلى فمه، نظر جهة المدينة "ربما لا يأتي الحـاج اليوم..".

- ج -

"الأم تأتي بالسمك الصغير من السوق، تكون الفرحـة إذا عاد به إلى الدار.." حين تجف الماء، وتعود الجنيـات التـي تتربص بالناس إلى بيوت النار في الأغوار، يرقد السمك في القاع، أو يموت على الحافة.

"ترعتنا لا يأتيها إلا الصير.. فكيف هرب من شباكهم المتينة؟؟" عثر على سمكة، أراد أن يلقيها على الجسر، تذكر الكلاب "ربما يعود" دسها في عبه، خبطت بطنه بزعانفها الضعيفة، ثم همدت "تموت بعد المعافرة" الجحش الصغير نهق بدلع "هل رأى أمه يركبها الحاج؟" نظر جهة المدينة، فلاح خاف حماره يردد أغاني قبيحة.

- تعال.
- الحمار عليه حمل.
- قدمه من البرسيم.

أدار وجه الحمار، شمر كميه وذيل جلبابه، نزل إلى الجانب الآخر.. تقابلت الأكف.

- لا شيء.
- أأكذب عيني.
- سمكة؟
- قرموط.

تراجعت الأكف، غاصت الأصابع في العمق.

- د -

تقاطر الدم ممزوجا بطين اليد، وصرخة الآه كانت حادة، انتصب الآخر، قدم مهرولا في بقايا الماء العكر، مسح الـدم بالماء.

- الحذر.
- القاع ممتلئ بالشوك، والزجاج.

عاد هو والآخر كل إلى مكان، تشنجت الأعصاب بكفـه السليمة، التقت الأكف في المنتصف.

- أنت تبحث عن الوهم.
- اصبر.
- وأشغالي؟

تسلق الآخر الحافة غارسا أقدامه فـي الآثـار القديمـة المطمئنة، هدم – هو – السدين، تدفق الماء المحتشد بشوق، صعد خلفه، وقف على الجسر، قد من ذيل الجلبـاب، ربـط جرح الإصبع.

- سلام.

- سلام.

طرح جسده منهدا على الكومة، سلم وجهه للغيم المتراكم، يتوالد في أشكال خرافية، انتفض على الضـربة المفاجئـة، أزعجت الماء الراكد.

في لمحة كانت عينه في عمق الماء الفوار.

داس الطين، قطع منه ليصنع سدا من أمام، وسـدا مـن خلف وراح ينزح بالكفين.

المنسية

- ١ -

الباب الغربي مفتوح لاستقبال هـواء البحـر المـنعش، وساعة الغروب ينفذ منه الضوء الأصفر الذي يستطيل حتى يرتمي على الجدار، يتمطى ليخرج من النافذة المطلة علـى السلم.

من الباب الغربي تتدحرج أسماء إلى الفسـحة – ينتشـر على أرضها تراب ناعم لا يقضي عليه ماء الطبيخ والغسيل والاستحمام.

وهناك – في الفسحة – تعطي الطاحونة ظهرها للـدار، تطل نافذتها – المسودة القضبان – على البئر الساخنة وحفرة ماسورة العادم، تطلق دخانا أسود يترنح في الهـواء حتـى يدخل عشة الدجاج، فوق السطح، هي تتدحرج تحت عشـة الفرن، بناها جدها من طوبة حمراء وطوبة سوداء، وعرشها بالخوص والجريد، وفرش سقفها بالقش، لتحمي الفرن الراقد في الركن كفحل الجاموس. أسماء تنقل تراب الفرن الأسود، وتدسه هناك في فتحة صندوق الغلال البارك كجمل عجوز.

وتسحب عود الحطب الجاف، لتنكت في التـراب، بعـود الحطب، ويدها صغيرة لينة، لكنها تصر، وتخـرج الطوبـة والطوبة حتى تعثر على الـدودة، تمسـكها بـين إصـبعيها الصغيرين وتقربها من عينيها، تركنها وتواصل الحفر، هـي لا تعلم أن الحفرة عميقة، وبعيـدة الأغـوار.. لا تحفـري يا أسماء، فها هنا ترقد العظام، لا تحفري.

- ٢ -

وكانت العمات حين أقبلن ودخلن الدار قلن لأبيهـا: نـوم أسماء.

وارب الشيش، وطرد الذباب المكدس على السرير، أخذها في حضنه، وكان قد لقمها البزازة، وراح يهدهد على كتفهـا هدهدة منتظمة حتى ثقلت جفونها ولم ترفع عينهـا السـاهمة عن وجهه، حتى أخذها النوم.

وانطلق صراخ أمها من الخارج، فقامت منتفضة فزعـة باكية، حملها وهو حائر بها.

خرج إلى الصالة، ورأى انقباضة وجهها الصغير، ويدها ممدودة على الحجرة التي ينطلق منها الصراخ، التفت حولها العمات، وقلن: لا حول ولا قوة إلا بالله..

وطلبت أن يخرج بها إلى الفسحة، حتى لا يزعجها الصراخ، واشتد بكاؤها، واشتدت رغبتها في الدخول إلى الحجرة، وراح يجمع اللعب التي قد تلهيها، كان يعرف أنها تحب ذلك القفل الأسود الكبير المعلق في الباب الغربي، فأخذها إليه، ظلت تضرب القفل في خشب الباب، والصرخة لما تشتد وتصل إليها، تتوقف فجأة عن اللعب وتنصت، وتعبس ملامح وجهها، وسمع أبوها أصوات الرجال عند الطاحونة، يمسك أحدهم الشعلة، والآخر قبض على ذيل الجلباب بأسنانه، قال لنفسه: ستدور الطاحونة، وتلغي الصوات فلا تسمعه أسماء، ولا يسمعه الجار المتطفل.

أخذها إلى نافذة الطاحونة لترى الرجال قد استماتوا على اليد الحديد يلفونها بقوة، والطارة الكبيرة تسرع في دورنها كثور هائج، ومكثت تنظر حتى ملأ الدخان المكان، فقعد بها على الكنبة في الهواء المتجدد إلى أن جاءت العمة مندفعة تجفف يدها في صدرها، قالت: الحمد لله.. قامت بالسلامة.

سألها: ولد ولا بنت؟

قالت: بنت.

سألها: عاملة إيه؟

قالت: بين الحياة والموت.

وأكدت أنها لن تعيش، وقالت بعد لم الخلقات القديمة: في داهية.. المهم سلامة الكبيرة.

وعاد ينظر إلى أسماء فيراها مبتسـمة مسـتعدة للعـب، مشيرة إلى القفل المعلق على الباب، وضمها بـين ذراعيـه بفرح شديد.

اجتمعت العمات على الكنبة، وقلن: أسماء بالدنيا.

وهمسن فيما بينهن: البنت حتة من أسماء، نفس الوش.

قال واحدة: بعد الشر، أسماء جميلة.

سألهن: البنت صاحية؟

قالت واحدة: عاشت ثلاث ثواني، بعدها شـهقت ثـلاث مرات، وماتت.

وطلبن من الأب التصرف في دفنها، قال: آخذها وأدفنهـا في تربتنا بعد الظهر.

وقلن: لا تربة ولا يحزنون، هات حد يحفـر لهـا فـي الحوش.

وخرجت الداية بالميتة، قطعة لحم داكنة ومزرقة، أخذتها إلى الحمام، ومددتها على الطبلية، خلعـت الدايـة جلبابهـا، وبدأت تنزح الماء من الطست، وتتلو الآيات.

وقام الأب ليشتري قطعة القماش الأبيض، وواحـدة مـن العمات صعدت إلى السطح تمسك دجاجة، وواحدة انكفـأت على المنخل تنقي الأرز من الطوب الصغير.

- ٣ -

جاء الرجل بفأسه، رمى جلبابه على الفرن، وعقـد ذيـل القميص ثم تفل في كفيه، ضرب الأرض ضـربات قويـة، وأسماء على كتف أبيها ترقب الرجـل مسـتمتعة بمشـاهدة جديدة، رمى من الحفرة فردة نعل قديم، وسكينة صدئة، قلبها بين يديه، قال: خسارة.

وركنها بجوار الجلباب، ثم جاب الطـوب الأحمـر فـي مقطف، صفه الرجل في الحفرة، ورش عليـه الرمـل، ثـم صفق بيده: هاتوا البنت.

أقبلت بها الداية، تحملها بين يديها، ملفوفة فـي كفنهـا، صغيرة بطول ذراع والعمات من خلفها لا يدرين أيحـزن أم يفرحن، الحق أن العمات ناقشن الأمر فيما بينهن وتوصـلن

إلى أن الميتة لا تستحق الحزن، فهن لم يعاشرنها ثم إن موتها رحمة من الله، فالأم المسكينة لا تقدر على خدمة طفلتين وأسماء طيلة أيام الحمل ضعيفة هزيلة، وإن شاء الله ستفيق وتسمن بعد رحيل الأخرى.

ووقف الجميع حول الحفرة الصغيرة، ونطقت واحدة فجأة كأنها نسيت أمرا – حنسمي البنت إيه؟ سأل الأب: لازم؟ قال الرجل: لازم.

ردت الداية ساخطة: ولا نسمي ولا حاجة، واحنا حنلحدها.

قال الرجل المؤمن الحريص على قدسية الموت: لازم نسميها، ونقوم بالواجب.

قال الأب: نعمل اللي علينا. قالت الداية: نسميها المنسية.

وارتاح الجميع للتسمية، ومد الرجل يده إلى اللفة بحرص، ورقد على ساقه، وحطها بأمان جهة القبلة، قرأت العمات الفاتحة، ثم استدار الرجل ليهيل التراب من كل جانب، فهرعت العمات إلى الداخل يصحن وينفضن جلابيبهن من الغبار، وظل الأب واقفا بينما أسماء متشبثة به ناسية العالم من حولها.

الدخول إلى قرية الجن والمعابد

الفتى الذي يوقظ أبوه الناس بطبلته، شهرا في العام، ترك المدينة إلى القرية التي تحتضن الرمل والخضرة، الفتى الذي يشحذ أبوه السكاكين للناس هاجر إلى القريـة التـي تعـانق مقابرها المعابد القديمة.

ترك المدينة التي تعبد الواحد الأحد، إلى القرية التي تعبد القط. ضاقت مدينته بناسها وسياراتها وبضائعها المستوردة، لفظت ناسها إلى البلاد التي تفجرت أرضها بالزيت، لفظتهم إلى البلاد التي تلتهم ماكيناتها الزيت.

أما "هو" الذي لا يملك عقد العمل فقال لأبيه الذي يطبـل ويشحذ السكاكين ويلقي الحكم والأمثال: الآن لم يبـق مـن بصرك إلا ما ترى به شبح أمي، فامكثا حتى أعـود بالمـال الوفير الذي يخرجنا من ظلمات حجرتنا إلى ضوء الشوارع.

وهبط إلى قرية المقابر والمعابد في عام رماده، قبع بـين الأحجار الكبيرة والأعمدة الطويلة يسعى إلى الحقـول لـيلا يأكل من فولها وبصلها، ويقضي وقته متفكرا: للغريب جزعة

فكيف أقتنص الفرصة؟ قلوب الناس مغلقة بقفل الحديد فكيف أفتحها؟

حتى كانت ظهيرة يوم، رأى أهلها يحملون نعشا، تولـول من خلفه النسوة، والحزن حط بجناحه الأسود علـى وجـوه الرجال.

ها هي فرصتك، فتقدم وأخرج من ذاكرتك أناشيد الحكـيم أبيك، قال الفتى ذلك بينما خرج من مخبئه مندسا في زحـام المشيعين، ضربت الفئوس بطن الرمل، هبط الرجـال إليهـا يوسدون الجسد الملفوف بالبياض الفائح بالعطر المبارك، ثـم تركوا الشيخ وحده يتلو على الجثة الوصايا الأخيرة.. حـين هموا بالوقوف اعتلى المصطبة المقابلـة، ذكـر اسـم الله، واستعان به وصلى على سيد الخلق ثم قال: إن الموت علينا حق. الذي عشش على وجهه عنكبوت الحزن، اقترب منـه، قبل ظهر راحته، كما قبله الرجال، تأبط ذراعه قائلا:

- كان عزيزا علينا، وغاليا.

- ليس عزيزا على الذي خلقه.

خلفوا الشواهد ترقد تحت عين الشمس، باهتة في غلالـة دخان الأرض المحترقة ودخلوا بين الدور النائمة في ظلها.

- أهلا بك في داري.

وأعدت المائدة بالخير الوفير - ولم يك نحيب النسوة قد كف – نال من كل طبق فكفت المعدة عن النباح، طلب الصلاة، فصلوا وقرءوا الأوردة كاملة غير منقوصة.

- من أي بلاد ه شيخنا؟

- من بلاد تكالب أهلوها فأكل الكبير لحم الصغير لحما حلالا.

- ليتك تقيم إلى الأبد بيننا.

-فلأرحل إلى بلاد تحفظ مجد الله.. وليتبعني ناسها إلى نوره.

وحين طالبه بالإقامة في داره قال: هذا ليس مكتوبا في اللوح، في دار فلان ابن فلان (وذكر اسم الرجل المضيف) تكون الإقامة حتى يأمر الرب بأمره.. ولما سأله العمدة عن أمر الرب قال: لم يحن وقت البوح، ولما سأله أن يخطب في الناس الجمعة. قال: هي مشيئة الله من قبل أن تسأل، فتزلزل الكرسي تحت جسد العمدة، حتى كاد أن يسقط.

قال في أول الرسالة:

لقد طابت لي المعيشة يا أبي الكريم، وها هو الدهر يقـف ليعانقني ويفتح لي أبواب الدنيا وليسامحني الرب إذا أغضبته في أمر، أنا لا أطلب غير الرزق الحلال.

في الصباح زاره أهل القرية في حجرته المعزولة، قدموا الهدايا وقبلوا اليد الطاهرة وطلبوا التوبة والمغفرة، لمس بيده على رأس أطفالهم وربت على المرضى منهم فصحوا ودعا لهم بالخير.

وفي الليل زار الجاموسة الكسيحة، مسح عليها فقامـت، وعقد مجلسه يلقي الحكم والأناشيد.

وفي يوم الجمعة خطب في الناس فقال: في المدن البعيدة الطهارة مطاردة، وقتل الأخ أخاه، واختلف الابن مع أبيـه، وأقيمت الأسواق تتجر في لحم البنات، تباع لقوافـل غريبـة غفلت عنها عين العسس، من هنا حيث الطهر لم يزل يرمح في شوارعكم ولم يزل الله ينظر إليكم بعينه الرحيمة، فلـيكن الأخ جنب الأخ، والناس سواسية كما قال خير الخلق. وقبـل أن يترك المنبر ابتهلوا جماعة، وطلبوا في توسل أن يحفظهم الرب من غول القوافل ومن ابن الإنسان الـذي يشـرب دم أخيه في كأس من ذهب.

عقب صلاة العشاء دخل الدوار، طلب من العمدة إحضار رجاله فأقبل شيخ الخفراء والخفراء، ورئيس الخدم والخـدم، ناظر الفلاحين والفلاحون، عامل الهاتف، وشيخ القرية.

وطلب من العمدة إحضار المائدة والشموع، واطمأن على الصرة في جيبه، أظلمت الحجرة بالستر السوداء، وتراقصت واهنة ذبالة الشمعة، أحاط بالمائدة الرجال، يرسـم الخـوف على وجوههم الصفراء شكل الفزع. حوقل، وبسمل وتشنج، راح في غيبوبة، حدث الجن وحدثه الجن، وانتشـرت فـي الأركان مردة بعيون النار ورماح الموت، أخـرج الصـرة، تدحرجت الخنفساء السوداء حائرة، تقطرت علـى ظهرهـا ذوب الشمعة، غرس على ظهرها الشمعة، تلجمت بحملهـا، لسعتها القطرة، سارت بلا اتجاه ثم توقفت، لسعتها القطـرة فسارت، والخوف يرسم على الوجوه الصفراء شكل الرعب.

قال:

- يقول الجن ابن نار الأرض: من فعل الفعلة، ينام الشلل في نصف جسده، تحرك وجه الخفير من بقعة النـور إلـى الظل، مكث الشيخ في غيبوبته يحادث الأطياف، عاد الوجـه خلف ظهر الشيخ، مد يده تحت المائدة فـي خطفـه، أدرك

الشيخ فتهلل بالأناشيد الغامضة، والتراتيل، قال: يقول الجـن القادر سأعيد المال لكن لليتامى والمساكين وابن السبيل.

تلعثم العمدة. وقال:

- هي إرادة الله كما هي إرادتك.

نهض الشيخ بعد أن أطفأ الشموع، وطلب رفع السُتُر التي تحجب النور، حيث كانت الربطة بالمال والمصاغ.

كتب في أول الرسالة:

أبي العزيز.. ها قد ضاقت حيلتي، وانتهت بي الإقامـة، العجـز يلقـي علـى أرديتـه الثقيلـة، إلـى هـذا الحـد لا أستطيع التجاوز، قضيت عمرك يا أبي رفيق الليل تنثـر على عباءته أناشيدك المباركة، وكنت أنـا جـوارك صـبيا يستلهم روحك ويردد في جنبات نفسه كلماتك، فكانـت لـي عونا في الزمن الصعب، أشعر أنني لا أستطيع السـير فـي الطريق إلى النهاية، يكفيني العبث بسذاجة الناس، جئت لهذه القرية لأحمل من خيرها الجم إليك وإلى أمي، لكن هيهـات أقعدوني بحملهم المعجز، لا أستطيع الاسـتمرار انتظرنـي فسأعود لأوقظ الناس بطبلتك شهرا في العام، ولأشحذ لهـم سكاكينهم الصدئة طول العام.

وختم الرسالة: ليتني أستطيع أن أعيد إلى عينيك النـور، سلم على أمي الطاهرة، لن يقربني الشر وببركات دعواتهـا أعيش.

استيقظوا حينما غرد نور الشمس على أطراف الشـجر، ودخل عليهم من طاقات دورهم المعتمة، انفلتـوا مـن بـين قبضة النوم المسترخية، بللوا الوجوه المستغرقة في حلم الليل بالماء الجاري في القنوات، في الوقت الذي ذهبت نسـاؤهم إلى الحظائر بآنية اللبن.

على الموائد تجمعوا يطردون الجوع الراقد منذ البارحـة، ركبوا المطايا، وسحبوا الماشية إلى الحقول القريبة والبعيدة.

لكن نفرا منهم انحرف إلى الحجرة المعزولة، كانت معهم الدابة المريضة والأطفال المرضى، والأم التي طال غيـاب ابنها في المدن وراء البحار، والمرأة التـي تريـد زوجهـا خالصا من دون الضرة، والشاب الذي يتمنى أن يلين قلـب الأب الذي حرمه حبيبته.

استندوا جميعا إلى ظل الجدار وانتظروا أن يفتح الباب.

استندوا إلى شمس الضحى وانتظـروا أن يفـتح البـاب استندوا إلى ظل المغيب وانتظروا أن يفتح الباب.

ويقال إنهم ما زالوا – حتى الآن – مصلوبين على الجدار منتظرين أن يفتح الباب.

الضيف

- ١ -

لما طرق علينا الباب. قامت أختي وفتحـت لـه، وأمـي جاءت من آخر الدار، مسحت يدها المبلولـة فـي طـرف طرحتها، وسلمت عليه، فتحت باب حجرة الجلوس، وأدخلته، ثم طلبت مني أن أصعد الكنبة لأفتح الشباك المطـل علـى الحوش، غمر الحجرة ضوء شديد، وبقعة الشـمس سـقطت على الصورتين المعلقتين على الجدار.

سألته عن أمه وأخواته البنات قال: الحمد لله.

وأختي كانت قد جرت على الطاحونة، لتنادي على أبـي، الذي جاء على وجهه وهدومه غبـار الـدقيق، سـلم عليـه بحرارة، وسأله عن أبيه والجماعـة، أراد أبـي أن يجلـس بجواره على الكنبة، فزجرته أمي "هـدومك وسـخة.. قـم غيرها" وأشارت إليه بعينها. تهامسا في الردهة، ثم أعطـاني أبي نقودا لأشتري كوكاكولا، وعاد ليرحب بالضيف "أهـلا وسهلا.. شرفت".

لما عدت، وجدت أمي وأختي فـوق السـطح، وسـمعت صوت الدجاج يكاكي، ودبدبات الأقدام على السقف.

دخلت حجرة الجلوس حاملا الصينية، وكنت حريصا على الزجاجة الطويلة المنتصبة، حتى لا تنقلـب علـى الأرض، ودخلت من الباب بجنب. كان أبي جالسا بجـواره بهدومـه المتسخة، قام ليأخذ مني الصينية المرتعشة، وقدمها للضيف. كان وجهه لامعا، وحذاؤه كان يبرق في قدميه، ولباسه فاخرا نظيفا، وشعره الناعم المنسق ينام بنظام على رأسه.

قلت لنفسي: هكذا أبناء المدن.

وتمنيت أن أكون مثله، وأكدت أنني سـأطلب مـن أبـي قميصا وبنطلونا كاللذين يلبسها الضيف، وعزمت أن أغسـل شعري كل صباح.

استأذن أبي ليبص على الطاحونة، وقال إنه سوف يعـود حالا، وطلب مني أن أجالس الضيف.

كنت أريد أن يحادثني عن المدرسة لأقول له إنني (الألفة) وإن اسمي مكتوب على لوحة معلقة على جدار الفصل وإلى جواره: رائد الفصل، وكنت أود أن أحضر لـه كراريسـي، لأريه نمر المدرسة، ولأقول له إنني غاوي رسم، ولي رسوم

كثيرة معلقة على حوائط المدرسة، ولكنه فقط سـألني عـن سني، ثم فاجأني بالسؤال عن نسوان بلادنا.

فحكيت له عن الولد (علي) الذي قام بالليل، وتسحب مـن السرير، يضاجع بنت خاله التي تنام عندهم، وكيف أنه حين خلع سروالها بالت عليه. وقلت له إنني.. أنا نفسي، أنام مـع نسوة كثيرات من الجارات. وإنني نمت مع (أم محمد) علـى سريرها المسدول عليه ناموسية، وهي التي طلبت ذلك، لأن زوجها سهران يروي أرض القطن.

وسألني عما إذا كنت قادرا على إحضار (أم محمد) هنـا في دارنا، فكذبت، وأخبرته أنها ليسـت بـدارها الآن، فقـد ذهبت إلى دار أبيها منذ الفجر. لما عاد أبي مـرة أخـرى، رحب به، وقال: زارنا سيدنا النبي، وسأله: الوالد بخير؟

قال: الحمد لله.. كلهم تمام. وطلب الضيف أن يقوم برحلة إلى الغيط، يرى الزرع، ويقضي يوما في الشمس.. فاستدار أبي إلى وقال: خذ الحمارة.. وفسح الأستاذ، على أن تعودوا على الغداء.

عبرنا الدار إلى الحوش، رفعت البردعة من على الفرن، وتحاشيت الدجاجتين المذبوحتين ترفرفـان وتنثـران الـدم حولهما.

سحبت الحمارة من الزريبة المظلمة، المسقوفة بالجريـد والقش، وثبت البردعة على ظهرها، وركب الضيف، وركبت أنا أمامه لنخرج من البلد، إلى طريق المصرف الطويل.

- ٢ -

كانت الأرض التي نزرعها تمتد مـن وراء دور العزبـة إلى أرض الإصلاح البعيدة، على رأسـها سـاقية وجـرن يحوطه سور مشقق، ومصلى تنام عليه الشـجرة العجـوز، وعلى جانب الجرن، الدار ببابها القديم، ونوافذها المخلعـة، في جذع الشجرة عقدت مقودة الحمارة، واتجهت إلى الـدار، قلت له: هذه الدار عشنا فيها عامين.

رفعت القفل الأسود الثقيل، ودخلنـا الردهـة المسـقوفة بالسماء. قلت له: نستريح قليلا.. بعدها نتجول في الزرع.

وقلت: كانت الدار مسقوفة، سقفها كان مرفوعا على جذع شجرة كبير، وكنا نسمع مدة العامين صوت "القراضة" فـي قلب الجذع، وقد قال أبي يومها، إنها القراضـة الملعونـة،

سنرفع الجذع الكبير، ونبدله بقضيب حديد، ولكن الجذع لـم يمهلنا، قمنا ذات صبح نفتح باب غرفة النوم، فلم ينفتح، كان السقف كله قد ملأ الردهة، ولم نشعر بسقوطه، ومـن سـتر الله. أن "السهارة" كانت مشتعلة طول الليل. لم تصل نارهـا إلى السقف، لأن سقوطه أطفأها.

لو اشتعلت، كنا متنا وسط النـار، بعـدها حلفـت أمـي ألا تعيش في هذه الدار أبدا، وقالت نضيع أولادنـا هـدرا، وألححت أنا وأختي على أبي حتى وافق على ترك هذه الدار، لنعود إلى البلد.

تركني الضيف وراح ينظر داخل الحجرات.

قلت له: أما هذه فكانت حجرة الجلـوس، فرشـتها أمـي بثلاث كنبات، خاصة وأن لها بابا خارجيـا، كـان بإمكاننـا استقبال الضيوف دون أن يدخلوا من الباب الكبير.

وكنت أريد أن أحكي له عن أيام فيها، ولكنه سـد فمـي بكفه، ولما راح ينظر في الحجرة التالية، قلـت: أمـا هـذه الحجرة فكان بها فرن، وهذه آثاره كما ترى، كنا نقضي فيها الشتاء، كانت أمي كل مغرب توقـد الفـرن، وتسـد منافـذ الحجرة، لنتجمع كلنا فوق قبوه، وكان أبي يستقبل.. أدار إلي

وجهه المكشر وقال: أنت تتكلم كثيرا، فتصلبت في مكـاني، وتركته يجول في باقي الحجرات، حتى انتهى إلى الزريبـة الممتدة بعرض الدار، ثم خرج إلى الجرن.. وقف على كومة التراب يبص على الأرض من تحته، خرجت إليه، وسـألته: نمشي في الزرع؟

كنت أرغب في تعريفه بأنواع، النبات المزروع، وأحكي له عن جيران الأرض وعن أيام الدودة، وسهراتي في الخص أيام زراعة الخيار والطماطم، وعن الذئب الذي يسعى فـي الحقول ليلا ليبث الرعب في قلوب الرجال، وكنت أسـتطيع أن أقول له إنني لا أخاف الذئب، وكنت أود أن أكلمـه عـن ذئاب كثيرة، سمعت بها من الفلاحين.

نزل عن كومة التراب، وأمسك كفى، سحبني إلى مـدار الساقية، وسألني عن دور العزبة التي تقع تحـت بصـرنا.. فذكرت له أسماء أصحاب الدور، سألني عن أعمالهم، فقلـت له: كلهم فلاحون ما عدا (عبد العلـيم) فهـو متطـوع فـي الجيش.. وسألني: هل يسكن هنا؟

قلت: له حجرة في دار أبيه الكبيرة. وسـألني: متـزوج؟ قلت: زوجته من المدينة، تلبس الروب المـزركش بـالورد

الكبير، وتعقص شعرها تحت منديل مزين بـالترتر، وهـي خياطة تخـيط الهـدوم لنسـوة العزبـة، وللسـانها لهجـة لا تعرفها النسوان هنا.

استند على كتفي وقال: ولكنها لا تظهر..

قلت: ربما تعمل داخل الدار فهي لا تذهب إلى الغـيط.. وسألني عن باقي النسوة، فذكرتهن جميعـا، خـبط بطنـي بلطف، وسأني عن أجمل واحدة فيهن، قلت: (وهيبة) البدوية، بنت (سليم الغرباوي) وهي رغم جمالها لم تتزوج، فالبدو لا يزوجون بناتهم لفلاحين، وأمها (عالية) لها اتصـال بـالجن وتقدر تجوزها أحسن راجل في الدنيا، وهي تقول إنهـا لـن تزوج (وهيبة) إلا لموظف من أبناء البدو يسكن المدن، ولكن كل الفلاحين هنا يحبون (وهيبة) ويرغبونها زوجة، وهي تدل عليهم، تسرح بغنماتها مع أبيها من الصبح حتى المغرب ولا تكلم الرجل الغريب.

نزلنا عن مدار الساقية، وجلسـنا فـوق سـور الجـرن، وسألني: لكن في العامين الذين عشتهما هنا.. أكيـد سـمعت عن علاقات خفية، فحكيت له عن زوجـة شـيخ العزبـة، وعلاقتها بـ (أبو طبيخ) وقلت له هي امرأة نحيلـة سـوداء

جافة، تعمل خبازة، لكنها تهتم بمظهرها، فهي تعقد منـديلها على جنب، لا تفارق عينيها الكحلةُ، وتقول أمي إنها تـتكلم باليد والحاجب، وشيخ العزبة عجوز أعـور لا يكـف عـن الكلام، يفض النزاعات بين الفلاحين، ويصلح بـين الرجـل وامرأته، ويدخل في كل مشكلة، فهو دائم التجوال وواجباتـه كلها في خارج داره، ويشرف على الأنفار أيام الدودة، يسجل محاضر المخالفات للفلاحين، و (أبو طبيخ) صـعيدي حـل بالعزبة، له زوجة بيضاء كالشمع وبنات بيض يعملن معه في حقله الضيق على شريط القطار، وهو مهـتم بالنحـل، لـه خلايا، يخرج منها العسل كل ربيع، وهو طويل فارع قـوي، صوته خشن يهز العزبة حين ينادي على زوجه أو بناته حين يكن بآخر الغيظ.

وقد سمعت من الناس أنها تطبخ له الحمام كـل ظهـر، وتنسحب خفية من وراء الدور، ولا تمشي في طريـق، بـل تخترق الزرع حتى تصل إليه في أرضه وينامان معـا فـي خص القش، تحت شريط القطار. وسمعت أنهم عثروا عليها مرة في حقل الذرة، وقد خطفوا سروالها، ولكن شيخ العزبة زمجر في وجه الرجال، وسب أمهاتهم، وقال إنهم يشـنعون

على زوجته، لأنها برقبة نسوانهن، وحكيت عـن (وحيـدة) و (مكاوي) وكيف عثروا عليهما يوما عريانين فـي القنـاة الجافة وسط الزرع، ولما سألني عن (وحيدة) قلت لـه هـي زوجة (مكاوي).

فقال: اسكت.. أنت كثير الكلام.

وسألني: نقدر نزور شيخ العزبة؟

قلت: لو كان أبي معنا.

وقلت: هو صديق أبي، يزوره في الطاحونة، وكثيرا مـا يأتي معه ساعة الغداء، ولما كنا نسكن في الدار، كان يقضي معنا ليالي الشتاء، فوق الفرن، ويقص علينا حكايات كثيرة.

قال: اسكت.

فسكت، أدار لي ظهره، ثم قام يمشي في الجرن، وقـف ينظر إلى الدور.

وسألته: نتجول في الزرع؟ قال: اسكت.

وفجأة عاد إلي وسأل: لم ربطت الحمارة خـارج الـدار؟ وطلب أن أربطها على مذود الزريبة، سحبت الحمارة إلـى الردهة، ورفعت عنها البردعة شددت باب الزريبة المرقـع

بقطع الخشب، وربطتها على مذودها الفارغ، وعدت إليـه.
قال: ابق هنا.

- ٣ -

قضى أبي صلاة العشاء بالدار، افترش المصلى أمامنـا، وكنت أنا والضيف جالسين ننظر إليه، ونسمع تراتيله، لمـا ختم الصلاة، وسلم ذات اليمـين وذات اليسـار، قـام يلـم المصلى، قال له الضيف "حرما" فرد عليه "جمعا.. إن شـاء الله" ونادى على أمي، لتعد العشاء.. وجـاء صـوتها مـن الداخل: "جاهز" ثم دخلت علينا أختي بالصينية، بعد أن فتحت الضفلتين وضعت الصينية على منضـدة بوسـط الحجـرة، وعادة بالقلة في طبق، حملق الضيف في وجهها، فارتعشـت عيناها، وسألت أبي إن كان يريد شيئا، فأمرها أن تجعل أذنها معنا، قد نحتاجها وأشار إلى الضيف: تفضل.

كان على الصينية طبق قشدة، وجبن وطعميـة وحـلاوة طحينية وخبز محمص، شمر أبي كمه وردد البسملة بهمس، ورددها الضيف بالصوت العالي، بعد العشاء، شربنا الشـاي السخن، وقام أبي لينام، استأذن من الضيف وقال: أنتم شباب تقدرون على السهر، ودخل حجرته بوسط الدار، كذلك دخلت

أمي وأختي الحجرة المواجهة، وأغلقتا الباب، وبقيت أنا والضيف في حجرة الجلوس صامتين، لا نتكلم، حتى طاب النوم، صحبته إلى حجرتي، فخلع قميصه، وارتدى جلباب أبي الفضفاض، وسحب البنطلون من أسفل، أطفأ النور وتمدد إلى جواري، تنهد براحة، وسألني: كيف تقضي ليلتك؟ فأجبته: في المقهى المفتوحة أبوابه على المزلقان، فهناك نشرب الشاي، ونتفرج على فيلم التلفزيون، ونتسلى بالسوداني واللب. أما الرجال فهم يتحلقون إلى جوارنا، يلعبون الطاولة والدومينو، ويدخنون الحشيش، في أيام الدراسة أذاكر، ولا أسهر في المقهى إلا ليلة الجمعة، دفعني بيده حتى صدمت بالحائط، وقال: نم.. نم. فنمت، وكنت لا أريد النوم.

في صمت الليل انتبهت من نومي على اليد المتوترة العرقانة تفك أزرار البيجامة وتجول فوق قلبي المنتفض.

ظل الموت

لما عاد الأبناء من الجبانة تكاثروا حولها وقالوا: أنت منذ اليوم معنا في دار أخيك. وقالت أمهم: من ريحة المرحـوم. ولما تأملوا وجهها المغضن، اكتشفوا في خطوطه وجه الأب الذي واروه التراب.

عند أذان المغرب، أضاءوا حجرة الأب، لتنير للروح التي تزور الأحبة كل مساء. وطلبوا من الشيخ أن يتلو آيات الله، لتأنس الروح، وتبارك أهل الدار. بعد أذان العشاء قالوا للعمة العجوز: فراش أخيك فراشك.

متوليات العزاء

وكانت – في طلعة النهار – قد أقبلت على ظهر الحمارة السوداء الضامرة. مرت بين الرجال القاعدين على الكراسي المرصوصة بجوار النعش بعد أن قطعت الشـارع الطويـل يسحبها ابنها الكبير.

عند باب الدار، فردت كفها على الجـدار، فقـام رجـل وساعدها: "البقية في حياتك"، وفتح لها الباب حيث واجهـت

السواد المكدس بالردهة، وراحـت تسـتند علـى حـوائط الحجرات بيد، وبالأخرى جمعت طرف الشال حول وجهها.

النسوة المعزيات أفسحن لها طريقا ضيقا بين ظهـورهن، وبالنظر الشحيح لمحت على السرير - تحت الملاءة البيضاء – الجسد النحيل الساكن المسدول عليه البياض، تتجسد تحته تكويرة الرأس وانتصابة القدمين. والسـرير كـان بعـرض الحجرة ليصبح الرأس جهة القبلة، والنافذة – فوق السرير – مغلقة بالشيش والزجاج لتحمي الراقد من عين النور.

على عتبة الحجرة كادت تسقط من الـوهن، غيـر أنهـا فردت ذراعيها فجأة فاصطدمتا بالضلفتين، لتخبطـا الحـائط على الجانبين بقوة، قامت امـرأة لتجلسـها عنـد القـدمين المنتصبتين.

حين ارتاحت على الأرض، تنهدت إذ أنها بـذلت الجهـد الكبير، وهمهمت النسوة فيما بينهن: "ما كان لها أن تجـيء" وقلن أيضا "العظمة كبرت".. وهمست واحدة متكومة علـى نفسها: "أكبر منه بأربع سنوات".

حين مسحت الدمعتين اللتين انحدرتا في شـقوق الوجـه، رأت في مرآة الدولاب وجهها وعمود السرير وساق الراقـد حتى حدود العورة المطفأة.

كانت أحب الأخوات إليه. مات زوجها من عشرين سنة، ولم ينقطع هو عن زيارتها في العيدين والمواسم، يزورها في دار ابنها البعيدة. وكنت تسعد بحضوره، يطل عليهـا مـن الباب شامخا بعمامته الزاهية وجلبابه السابغ الفضفاض. ويمد ابنها كفه المجذوم – جف حتى صار كجذع شجرة سنط ميتة – ويحييه كما ينبغي للرجل المتواضع أن يحيي الرجل العالي القدر.

يفرد الحصير اللامع الملموم في الركن، يهـزه هـزتين، يسقط الغبار المنتشر في ثنايا السمار، ويبسطه على الأرض، ويحلف عليه ألا يجلس حتى ينيم المسند على الحصير، ويمد خلف ظهره الوسادة المكسوة بالكيس الأبيض المطرز.

هكذا يبدأ عندها العيد، وينتهي حين يفتح المحفظة البنيـة الكالحة ويختار لها الجنيه من بين الورقات الكثيرة، تدسه في كيس القماش المزموم بخيط يلف على رقبتها.

وها هو مستكين للغطاء المفرود عليه. وها هـو يطيـع الرجال الذين رفعوه على سريره إلى المغسلة التـي امتـدت بطول الحجرة أما هي فقد قبعت بين النسوة ترقـب الـداخل والخارج. يضيع أنينها في العويل المرتفع، تراه لفة بيضـاء نحيلة بين أذرع الرجال القوية، مندفعة إلى خـارج الـدار، لتغطس في غطاء النعش الممتد أمام الباب، تتـدحرج بـين السيقان ممسكة بالشاش لتهتف بالصوت الباكي: "بالسـلامة يا أخويه".. ثم ترتكن على حائط الردهة منهـارة، فـي دار واسعة فارغة احتفظت أركانها بصريخ النسوة المتشبث.

كانت الضلفتان المفتوحتان تظهران السرير النـائم علـى جنبه، وبقعة الماء، وقطع القماش الأبيض تتناثر حولها نتف القطن المبتل.

حدثت نفسها الحزينة، قالت: ها قد رحل زوج المـرأتين وأبو العشرة. الشاطر.. قضى عمره الطويل يجمـع ويلملـم الدور والطين والطواحين، وما خرج إلا بكفنه.. بينمـا أنـا المسكينة أقعد في داره المفتوحة الأبواب خائفة ووحيدة.

يوم الثالث

قعدت بين النسوة لا تنبس. شربت القوة السادة.. وتغـدت بين أبناء أخيها.

الخميس الكبير

كانت وحدها على الحصير بالردهة. لمـا عـادوا إلـى المضيفة آخر الليل ودخلوا حجرة الكنـب، بسـمعها القليـل عرفت أنهم يتقاسمون مال أبيهم. بعـد مصـاريف الجنـازة والدفن والخميس. جعلوا للذكر مثل حظ الأنثيين، والثمن للأم الكبيرة، وادخروا مبلغا للأربعـين. ولمـا تـذكروا الآيـة وتذكروها أرادوا ألا يغضبوا الله، فمد كبيرهم يـده بورقـة حمراء، ظلت في كفها حتى نامت في حجرة أخيها المظلمـة غير راضية.

في الأربعين

قضت النهار بين النسوة لا يكلمها أحد. وحصـلت علـى غدائها قرب أذان المغرب، بينما رأت البنات – عقب الظهر – يختفين في الحجرة بآخر الدار ليوزعن فيما بينهن أنصـبة اللحم.. وسمعتهن يهمسن ويكتمن الضحكات.

في أول الليل حين طرق ابنها الباب، لم يمانع الأولاد ولا البنات.. غير أن الأم الكبيرة قالت على سبيل الواجب: "دعها بيننا تؤانسنا، والدار دار أولاد أخيها" لكنها شدت يده ليرفعها على الحمارة السوداء الضامرة.. وعادت.

أيام الصبي والعانس

الظهيرة:

(أ)

الصبي الصغير جالس بين النسوة تحت شجرة السنط العالية في هذه الظهيرة التي هجعت فيها الكلاب تلهث على بقع الماء الرطبة.

النسوة كن يثرثرن، ويقطفن أوراق الملوخية الخضراء من عيدانها، يكومنها في الغربال..

نظر إليها تمضغ العود الريان الخالي من الورق، تتمدد خلف ظهرها ضفيرتان ثعبانيتان تنبت جذورهما تحت منديلها الأبيض الملون بورد صغير.. أحمر وأصفر. تتدفق قناة صدرها السمين بين ضفتي الثديين، بعد أن تنقطع الرجل عن الشارع، وتغلق الأبواب على ظل الدور الرطبة، تبقى السنطة فارهة ووحيدة، تداري نفسها بظلها السخي.

تنهض أمه من بين النسوة معلنة "أن العفاريت قد قيلت.. هلا قيلت" يصمت هو العارف أنها ستعارضها "ليرقد معي أنا الوحيدة".

فتمشي النشوة في فوضى دمه الحار.

تذهب صاحبة الملوخية بغربالها.

ينفضن ثيابهن لتسقط العيدان على الأرض تنقنـق فيهـا خراف الجيران وجديانهم تغلق من خلفها بابهـا ذا الصـوت الحزين الملول، الصبي الصغير في أثرها في غرفتها التـي تتسع للحصير والدولاب الذي تفوح منه رائحة الدسم تعلـق الشاش الأسود على النافذة المضيئة.

يجلس في الركن على الوسادة الملوثة بـدم البراغيـث، يرقبها وهي تطرد الذباب من الباب إلى الردهة، ليتكوم على جدران الزير وحصير الجبن.

بعصفورة الخشب الكبيرة تغلق الغرفـة، يلحـظ (محمـد الجدع) التي خطها يوما بطباشير المدرسة.

تتمدد متأوهة من الركبة والمفاصـل، تعطيـه ظهرهـا العالي، وتأمره بالنوم الساكن فيرقد دون صوت.

(ب)

يا هذا الصبي.. أعرف أنك لا تنام، تظل عيناك مفتوحتين على صورة الرجل البدوي ذي الشارب النابت مـن اللحيـة الكثة.

قالت لأمك يومها: ابتعتها من السوق بعشرة قروش. قال البائع: إنه الإمام علي.

أنت الآن في انتظار يدها التي تسـحبها إلـى جلبابـك، فسروالك، فموضع بين فخذيك يوقظ النشوة النائمة في جسمك الصغير.

ها هي – بالفعل – يدها تصب النار بين فخذيك بعـد أن تفرك أصابعها لبعض الوقت، ستلتصق أنت بها، وتمد بالتالي يدك إلى جلبابها الثقيل تسحبه بنعومة، حتى تلمس الخشـونة المبهرة. حينئذ تكون هي في الاستسلام المطلق فما عليك إلا تعبث في الجسد المنساب بأفخاذه المرتفعة الممتلئة بالشـحم، بالثديين الراقدين ككلبين أليفين، والسرة – فوق الهضـبة – يحلو لسبابتك الـدوران فيهـا. تقـوم بكـل هـذا.. فقـط لا تدع لعينيك تأخذانك إلى عينيها المسرورتين تحت كوعها.

وفي تمددك على الهضبة العالية، إياك والسقوط عند الاهتزازة المزلزلة. تحوط بيديك الدقيقتين الخصر الذي لا نهاية له، وتدع لنفسك المتعة الطفولية التي لا يسبقها شيء، ولا تنتهي إلى شيء.

وتحمل ضغطها المحموم الذي لا تقابله بفعل.

وحين تزفر بتنهيدتها الحارة ينبغي أن تهبط من تلقاء نفسك وإلا أسقطتك إلى جوارها كعلقة ميتة.

وإن حاولت مرة أخرى ستضربك بكوعها في جنبك باستسلام حتى يبرد جسمك.

ولا تطل النظر في وجه الشيخ ذي اللحية لأنه سيرعبك.. لا تفكر كثيرا في السيف الذي سيحضره يوما ليقطع رقبتك عقابا لك، فيسيل دمك ساخنا على صدرها، أو في أمك التي تكون قد دخلت بطريقة ما، وتجدك في نومتك الملهوفة، فتصفع وجهك أو تكوي جلدك بالنار.

ولا في السرحين يرفع عنه الشاش الأسود لعيون صبية الشارع عبر قضبان النافذة فترجم بالحجارة.

سيذهب ذهنك فقط في محاولة لتذكر المرة الأولى، فلن تجدها.

(هل تتذكر رضاعتك من ثدي أمك؟ وهل تتـذكر البـول الذي كنت تدره في قطامك؟).

هكذا وجدت نفسك معها في ليلـة مـن الليـالي، أو ذات قيلولة كالتي تضطجع فيها الآن، كما وجدت جسـمك الـذي تكون بلبن أمك، أو ملامحك التي ورثتها عن آبائك وأجدادك.

وإن كنت تذكر أمها التي ماتت، العجوز بشعرها الأبيض المشوب بصفرة كصفرة الدخان على شارب جدك.

وتذكر يوم أن حملتها الخشبة إلى المقبرة البعيدة.

يومها قالت أمك: المسكينة ستعيش وحيدة..

بعدها كان من السهل على ذهنك الصغير ألا يفاجأ حـين يعثر على جسمك ممـددا علـى أرض غرفتهـا، وتعلقـت بحصيرها الذي ينطبع على لحمك أكثر من تعلقـك بسـرير أمك.

وتندهش (لماذا هذه المرأة بلا رجل؟ أليست امرأة مثـل أمك؟ فلماذا لا يكون لها رجل كأبيك؟)

وكانت تقول للنسوة ولأمك: هو عريسي.

وكنت تخفض رأسك خجلا.. أو تفر بعيدا.. لأنك تتـذكر فعلة الأمس وتعجب من هـذه المـرأة الملفوفـة بالطرحـة البيضاء، والتي يحترمها الناس، ويقولون عنها: عين الكمال والعقل.

وتكون غير ذلك معك فترفع جلبابها حتى الرقبة عن جسد شمعي يحتاج منك لألف فعل، وتقف حياله دون فعل، بينمـا هي حين تلقي بك على هضابها المرتفعة تثور وتنتفض.

الظهيرة مرة أخرى:

(أ)

.. وقف عند الجدار، يملأ المرآة بالشمس، يبعث ضوءها هناك إلى النافذة المظلمة، وفتاته بعذوبـة أنوثتهـا المبكـرة (هناك) تحاور الأشعة عينيها وتدغدغ البسمة وجهها المنـور "آه.. لو كنت منك قريبا". والنسوة مجتمعات تحت السـنطة تبص عليهن الشمس من بين الورق الداكن والشوك، تلـوك ألسنتهن السير المكررة.

هو سعيد بخفقة القلـب النشـوان.. هـو يـذكر لحظـة الاختلاجة الأولى. في يوم كان الشتاء قـد مـلأ الشـوارع

بالطين، كانت جالسة على عتبة بابها. فاندفع كل دم القلـب إلى وجهه، وتاهت منه خطاه. في النوم جاءته خفيفة شـفافة بثياب بيضاء هفهافة، ووجه باسم بنـداء مسـتحيل، قبلتـه وقالت: منذ اليوم أنت لي.

وارتمى في حضن الشوك الملتهب، فـي النهـار كتـب الرسالة المدعمة بالسهام المغروسة في القلوب، تحوم حولها حمائم وعصافير، ونثر حولها كثيـرا مـن الزهـر وأوراق الشجر المخضرة.

(ب)

وها أنت مصلوب في الهجيرة، لا تملك غير النظر إليهـا من بعيد.. لا تملك أن تدخل الطاقية في العب أو تلعب "يـا بونا ضربونا".

ولا تملك أن تدخل حلقة النسـوة المجتمعـات فحلقـاتهن صارت سرا من الأسرار، حرام عليك كشفها طالما عرفـت كيف تختلي بنفسك مع إحداهن على سرير الليل والأحـلام. هي الآن عالمك، تطل عليك من الكتاب إذا فتحته، وتتمـدد جنبك في النوم إذا نمت، فترى هذه المدينة الهادئة التي يرتفع بها بيتك شاهقا، مزينا بأزهار الحديقة التي تغرد فيها أطيـار

بأجنحة حمراء.. وخضراء، تهفهف على غصون أشـجارها ستائر غرفتك المزخرفة وأنت بين جـدرانها فـي حضـن الحبيبة، وقد صارت أنثى كاملة بصدر ممتلئ، وقـد ميـاس تنزع نفسك المحترقة بالقبل التـي لا تنتهـي علـى سـرير غامض في الليونة، أغمض جفنيك حين تلمح الصورة البشعة (الحصير والوسادة الملوثة بدم البراغيث والشيخ الذي يهـدد بالسيف) أنت الآن حر، من العجوز الشبقة، وأمك والبدوي.

وهناك أيها الفتى الشرود يمكنك أن تقول أحبك.

فترد عليك برقة: يا حبيبي.

والآن حان لك أن تذهب.. فالشمس حارة وقوية، والنسوة قد أنهين سيرهن المعادة وعدن إلى رطوبة الدور المسقوفة، إياك أن تحن للعانس، أو يغريك منـديلها المـزين بـالورد، فتسحبك كذكر البط إلى غرفتها، أنت قلت كلمتك: لقد صرت رجلا.. فالعبي مع فئران دارك.

وها هي تطل عليك من بابها الموارب.

أعطها ظهرك، وأخلفها في مقبرتهـا المظلمـة والـذباب والجسد المنصهر بالرغبة. فقد حان موعد الظل على سـطح دارك، لتروي نبتتك الخضراء النامية باستحياء، فقد تشـققت

أرض إنائها العطشى، واصحب معك كتابك، ستكون هي هناك في نافذتها البعيدة، ترعاك بعيونها الحانية، فابسم لها إن سمحت لك قدرتك أو فاكتب الرسائل حتى تأتي لحظة القدرة.

الملاك

- ١ -

تحدث الناس عن الفتى الذي جاء يطلب "كريمة" من أبيها قالوا: هو ابن تاجر سمك، يسكن الحي الواقع على ضفة النهر، وقال الكبار: جده لم يدخل الجامع إلا بعد أن نحل الأفيون بدنه، وضحكوا حينما قالوا: كان يصرخ بالآه ويزعق في وجه الله – في الركعة والسجدة – من ألم المفاصل، ويقضي صلاته في كحة مسلولة لا تنقطع.

أما عن أبيه فقد تحدث الناس عن سحاحيره وعربته الكارو التي يدور بها في الأسواق، يبيع أمشاط البلطي والبياض، وعن بصبصته للنسوة الشاريات، وضحكوا حتى كحوا حين ذكروا رائحة داره الزفرة التي يشمها سابع جار.

وفتية الكفْر دار بينهم الحديث عن العريس، أكدوا أنهم يعرفونه منذ أن كان ينعم تراب الشارع ببجامته المكوية، وأكد واحد منهم أنه يعرف ما أخفاه ابن الحاج الذي ضاجعه في عباءة أبيه الجوخ، وأصر أن هذا الداء ما زال فيه حتى

بعد أن تطوع بإعداديته فـي الجـيش. وأنهـم لـو أرادوا مضاجعته لأحضره إليهم هذا المساء.

وأكدوا جميعا أن "كريمة" الجميلة سترفض أن تربط نفسها بالزفارة. والذين حضروا من الجيران قراءة الفاتحة أقروا أن البنت هددت بدلق الجاز على جسدها، أما أمها فقد صـرخت في وجه أبيها الذي أفسد الكبر عقله. لكنـه صـفعها علـى وجهها وقال: يا امرأة تريدين أن تسودي وجهي، أنا رجـل وقلت كلمتي للرجال، أم تودين إبدال شالك بعمامتي هذه؟

وتجمع أهل الكفْر – ليلـة الجمعـة – يشـاهدون فـرح "كريمة".. كانت في طرحتها البيضاء، بين الكوشة، تحـاول أن تبتسم، وعرفوا أنه سينقلها الليلة إلى داره على الطـرف الآخر، وبكت النسوة والرجال حينما ودعوا السـيارة التـي أزعجت الكفر بزمارتها القوية المتتابعة، ولما أدخلها غرفتـه في الطابق الثاني قال: هذه غرفتك، وأنت منذ الليلـة علـى سريرها وبين كنباتها لا تفتحي نافذة ولا تطلي من شـرفة، ودق المسامير في ألواح مدها على هيئة صليب.

تذكروا يوم أن اشتروا الدار لأبيها بعد أن زف إلى البنت التي اختارها سمراء نحيلة من القرية البعيـدة، بعـد عـام استدعوا – عند الفجر – القابلة العجوز، لتستقبل البنت التـي ملأت أركان الكفر صراخا، جاءت كملاك أبيض سمين رباه الرب في أحشاء أم سمراء نحيلة. في اليوم السابع غرسـوا في صينية الحناء الشموع الكثيرة، وسموا كل شمعة باسـم، ماتت نارها جميعا ما عدا الأخيرة، وكانت باسـم "كريمـة" فقال: فلتكن "كريمة".. مكرمة من العبد ومن الرب بإذن الله.

علقت لها أمها خمسة وخميسة في خصلة الشـعر، كمـا علقت الأحجبة والقروش القديمة على صدرها، وتركتها تحبو في الشارع مع بناتهم تأكل من ترابه وتعجـن فـي طينـه، وأطلقتها تجرى في الشارع ويجري معها شعرها المقصوص على هيئة ذيل حصان، فيتقافز على خديها قرطـان بفصـين لامعين، وعلى صدرها تهتز ثمرتان ناضـجتان مشـتاقتان للشمس والهواء.

وتذكر فتية الكفْر يوم أن رأوها فحرم عليهم النوم، أحبوا طلعة الفجر، وشقشقة العصافير، ولما يحـل الليـل كانـت روحها الشفافة تتوزع في كل دار، فيجدها الفتى الغافي فـي

الفراش ممددة في حضنه تحت الغطـاء تعطـره بأنفاسـها، فيهمس إليها بكلام أكثر حرارة مما قاله بطل الفـيلم للفتـاة الباسقة ذات الشعر القصير والسروال الضيق.

أما الفتى اليقظان فكان يجدها أمامه بين سطور الكتـاب تبتسم له وتدعوه للقبلة المسـكرة، فيشـدو بأبيـات الشـعر المحفوظة أو يقوم فيخط الرسالة المدعمة بأجمل أغنية رددها المذياع ويرسم على حواف الرسالة الزهور الملونة، وكـانوا يخرجون مع نور الصبح إلـى المـزارع يطـالعون كتـب المدرسة، يحفرون على شجر الحقـول القلـوب المرشـوقة بالسهام، ويكتبون بالمسامير اسمها بخط يجهدون أن يكـون جميلا كصاحبته.

حتى أن الفلاحين من أبناء الكفر حفروا مثلهم – بأظـافر اليد – نفس القلوب والسهام، ورددوا في سيرهم خلف الجمال والحمير الأغاني المشتاقة للحنة والشال القطيفـة والمنـدرة المغلقة على الدفء والولد الجميل من الأم الجميلة.

والغرباء الذين حضروا سوق السبت تذكروا يوم هربـوا من حر الظهيرة إلى ظلة دارهـا، وقعـدوا حـول القفـف والمقاطف يطردون الجوع بالأرغفة والطعمية، ولما عطشوا

طلبوا الماء من الباب القريب، حين خرجت عليهم "كريمـة" بالقلة تنضح بالماء قضموا أكفهم بدلا من اللقمة، رووا الحلق بالماء الممزوج بماء الورد كما رووا القلوب العطشى بحـب العيون السود الضاحكة.

وأكدوا أن السوق – بعد ذلك – ازدحمت بالشاري والبائع من كل بلد، كانوا جميعهم يتجهون ليبلوا الحلق الجاف بمـاء السبيل الذي أقيم عند باب الدار.

حتى أن أعيان الكفْر أرسلوا المنادي يعلن في الشـوارع وفي البلاد المجاورة أن السوق طيلة أيام الأسبوع، وبعـد أن كانت تقام بالساحة في آخر الكفر ستكون في الشارع الـذي تسكنه "كريمة".

والحاوي الذي كان يوهم النـاس بعبـور الطـوق بـين السكاكين والنار، قفزه في خطفة لما رآها تبص عليـه مـن سطح الدار، كذلك بائع البوظة والعطار والسمكري هـدموا خيامهم القديمة في الساحة، وأقاموا غيرها أمام بابها المفتوح.

وكانت "كريمة" ترد على كل الرسائل التي تلقى إليهـا أو تندس تحت عقب الباب. ردت على الصبي الذي كتب "أحبك أكثر من أمي وأبي وأختي الكبيرة.." وذيل الرسالة بالنشـيد

المقرر في كتاب المطالعة، كذلك ردت على الفتى الذي نقـل لها رسالة من كتاب رسائل الغرام، وعلى رسالة الفلاح الذي كتب "يا بنت سيد البلد يا تُخْن بعضيكِ.. إمتى يغيب القمـر وانط وآجيكِ".

- ٣ -

قال حينما أعادها لأبيها: بنتك فاجرة ولعوب.. فاجأتها لما نزلت إجازتي وسط الأسبوع مع فتى جيرانكم، رغم أني قـد أغلقت عليها الأبواب والنوافذ، وهذا دليلي. وألقى في وجـه أبيها جوز نعال.

وفوجئ الناس لما رأوا – في هذا اليوم – الصبح يطلـع من دار "كريمـة" ابتسـمت لهـم ولوحـت باليـد، لكـن يا ولداه، لقد شخللت الأساور بمعصمها، وكانت مـن قبـل غائصة في ليونة الذراع، والبسمة كانت باهتة فـي الوجـه الباهت.

قالوا: لقد عادت لأن أولادنا كسروا أبواب زوجها المغلقة.

لكن الجارة العجوز أكدت أن البنت قد باحت لها بسـرها وقالت: يا خالة منذ أول ليلة لم ينتصب له بشر، زرت معـه المشايخ فأفتوا بأنه قد خطى العمل الذي حطه العـدو تحـت

عتبة الباب، حفرنا العتبة وعثرنا عليه معقودا كالحواية، ولما جاءني بالليل. فقط بال وجهي بلعابه، وملأ أذني بلهاثه المحموم، ثم ركلني ونام، وقلت له نعود للشيخ فأفتى بأن العدو هذه المرة قد ربط العمل برأس قرموط، ولو كان القرموط في نهرنا كنت قد أحضرته. ولكنه اللعين قد عبر النهر إلى المحيط الواسع.

- ٤ -

قال الناس: ها هي تعود وليس بأحشائها شيء.. وقد فارقها الجمال.

وهمسوا فيما بينهم: ربما كان الذي أخذها إلى آخر البلاد كابن بائع السمك ليس فيه للنسوان، وسخروا: أو يكون العيب فيها وتخفيه، أم ما بال رجال هذه الأيام أعضاؤهم مرخية؟

و "كريمة" لما سمعت بذلك حكت للجيران.

بأن الرجل الذي كان قد سمع بجمالها واشتراها من أبيها بثمن رفع له أعمدة العمارة الجديدة، أسكنها الشقة في الدور العاشر تطل شرفتها على بحر واسع يقال له النيل، له قنطرة لا ينقطع عنها عبور السيارات ليل نهار. وحلفت بالله العظيم إنه لم يقربها، ولم يجمعهما فراش، فقد كان يأتي بفتيات لهن

أفخاذ عارية وأثداء مدلوقة، يرقصن على دقات موسيقى صاخبة مرة وناعمة مرة أخرى، ولا يتركن كأس الشراب من أيديهن حتى يطلع عليهن نور الله، وأكدت أنها رأته بعينها التي سيأكلها الدود بين لحم إحداهن في الحجرة المغلقة عز النهار، وبكت حين أتت إلى ذكر الرجل الذي دخل عليها عاريا – بالليل – يرفع عنها الغطاء، ويشلح ثوبها، ولما صرخت تستغيث دخل ليصفعها ويطلب منها أن تستجيب للرجل.

وقالت إنه منذ هذه الليلة وهي تغلق باب غرفتها على نفسها كلما حضر الرجال الذين يحملون الحقائب السوداء الممتلئة بالجنيهات الورقية.

وإنها كانت تسمع من خلف بابها طرقعات الكأس وكركرة الجوزة، وقالت إنها جمعت خلقاتها وعادت حين دعاها لتجمع حاجاتها وتعد نفسها للسفر البعيد إلى بلاد يقال إن لرجالها وجوها حمرا وشعرا ذهبيا وعيونهم زرقاء بلون ماء النهر.

وحكى الناس فيما بينهم أن "كريمة" لم تعد تنفع لأحد من أبنائنا.. وأن ماء سبيلها ستظل حتى يأكلها العطن.

وجاء واحد منهم وادعى أنه رآها في البلد المجاور تتأبط ذراع ولد يرتدي سروالا ممزقا، وله شعر يسقط حتى صدغية وأنها قد دخلت معه مكانا يلتقي فيه الفاسدون.

وحكى آخر أنه رآها – وهو لا يكذب – في الخرابة مع واحد من صبية موقف السيارات فاردا شعرها، يبوسها بين ثدييها، وحلف بالنبي أن سروالها عنده في الدار، فقد خالسهما والتقطه حين استلقيا على أرض الخرابة. وأنه قد قذف الولد بحجر في وجهه، وهو لذلك مجروح ويربط رأسه بشريط أبيض.

والجارة القريبة أقسمت لمن حولها – رغم أن ربنا أمر بالستر – أنها رأتها مستلقية على حطب السطح يركبها ولد بانت فلقتاه واضحتين تسدان عين الشمس.

وأنها حاولت أن ترى وجهه، لكنها لم تر غير الفلقتين، ولم تسمع غير صوت تكسر الحطب وتأوهاتها الحميمة، وانتظروا جميعا أن تخرج عليهم "كريمة" يوما ببطن منتفخ يحوي ولدا لا يعرفون له أبا.

عباءة الليل

كنت أنا وهي والليل في مدينة كبيرة نائمة، بعد أن فارقنا الصديق سكران بخمر حانتين، وقف يودعنا ليلحق بآخر قطار، ولم يدعنا معه، فهو يسكن الغرفة الضيقة التي لا تتسع إلا له ولزوجه وبنتيه.

قلنا لليل: يا ليل هل تؤوينا؟

قال الليل: أنا أكتم سر العشاق والسراق، وأستر على فرشة الزوجين، وأداري نومة الفقير.

قلنا: فنحن عاشقان غريبان، ليست هذه مدينتنا، غادرنا بلادنا لأنها تترصد للمحبين، وتفضح سر القلوب.

قال: شقا طريقكما وأنا معكما أسمع وأرى.

وكان طريقنا طويلا وبعيدا، قلت آخذها إلى غرفتي التي منحها لي صديق.. ولأجرب معها الحب، ولأكون مثل كل الأحبة الذين قرأت عنهم، ورأيتهم على الشاشة يتأبطون الأذرع منطلقين في خفة، يرمي الهواء شعرهم إلى الوراء، وحولهم تطير النسمة المغردة، وينمو الزهر المبتسم،

وتزقزق لهم بلابل لا تراها العين. وخفت لأن صديقي حـين أسكنني قال: لا تصحب إلى غرفتك امرأة، فأنا أخاف الناس، ولا تأتي آخر الليل سكران، فأنا لا أحب الخمر التي حرمهـا الله.

تمنيت لو أجد البوابة الحديد مفتوحة، سنمرق منها خفية، وأدير في ثقب الباب مفتاحي الكتوم ولا أشعل مصباحا، ففي الظلمــة ســأرى علــى نــور وجههــا الحبيــب، ولا أرفع صوتا، فيكفينا همس القلوب.

هناك وجدت المصباح يرش على البوابة نوره المتشـبث كبرص، وسقطت خيالاتنا على قضبان الحديـد المربوطـة بالسلسلة الغليظة، نظرت إلى أعلى، ولـم أقـدر أن أرفـع صوتي لأنادي عليه، وغاظني انغلاق نافذتي القريبة، نظرت إلى وجهها الشارد وقلت: لا تحزني.

قالت: طالما أنا معك لا يهم.

والليل كان قابعا هناك في الأرض الخلاء، يكتم ضحكة.

قلت: يا ليل.

قال: أنا لا أغلق البوابات.. فأرضي رحبة، ويدي بعرض السماء.

قلنا: ولكننا نريد جدارا وفراشا.

قال: أنا لا أملك غير عباءتي السوداء.

قلت لها: فلنذهب إلى صديق قريب من هنا. ينام النهـار ويسهر الليل.

قالت: كيف ننام عند غريب؟

أحطتها بذراعي، وقلت: لا تبالي.. فقلبه مفتوح.

كان النور يخرج مع الموسيقى من شيش نافذته المغلـق الضلفتان، وتردد صوت الطرقات كأنها في فـراغ، وكانـت هي واقفة عند البوابة ترقب الباب من الداخل، خبطت مـرة أخرى، وناديته باسمه، وفي المرة الثالثة انطفأ النور، وخفت صوت الموسيقى، وانتظرنـا، فلـم يخـرج أحـد، قالـت: لا فائدة.

وعدنا نعبر بقع الماء بين البيوت المغلقة الأبواب، كانـت في الصمت وفي الضوء القليل شبيهة بشواهد القبور، وألـف عين من وراء النوافذ ترقبنا، وتحبس ضحكات متشفية.

والليل العجوز يسير خلفنا يخب في عباءته، كنـا نسـبقه بمسافة، وهو على آخر ظلنا المتعرج، مجتهد فـي مشـيه..

يحاول اللحاق بنا، يرفع العباءة المهترئة من حـين لآخـر، ويلقيها على كتفه فتلم بعثرة لحيته الرمادية.

على أول الشارع الكبير كانت السيارات المجنونة تمـرق مسرعة، سرنا على الرصيف فرحين بالنور الغامر، وإن كان قد جمع باصفراره قليلا من الوحشة في جانب القلب.

خرج علينا الشرطي فجأة من وراء سـور تنشـر عليـه الأشجار المتشابكة ظلمة قاتمة، كان وجهه مشدودا، وأسنانه سوداء، بل كان لباسـه كلـه أسـود: البيريـه، والسـترة، والسروال، والنعل، تقدم نحونا، فكدنا نرجع بظهورنا فارين، حمامتان سقطتا بغفلة على "خيال مآتة"، وكانتا تمنيان نفسيهما بحب وفير في أرض خصيبة.

قلنا: نحن أخوان ذاهبان إلى قريب يحتضر.

ونظر خلفنـا فـرأى الشـبح الكهـل، فتراجـع وقـال: لا تفعلاها مرة أخرى.. فإن الدولة تدفع لي راتبي من أجـل أن امنع أمثالكما من السير أثناء الليل.

وانطلقنا.. في البدء سرنا بجوار السور متلاصقين نخاف من انقضاض اليد على أقفيتنا وبعد أن سرنا مسافة معقولـة، مشينا متحررين، ولكننا لم نتكلم، فقط نظرنـا إلـى الـوراء

لنطمئن، فواجهتنا الابتسامة في الوجه العجوز، والفم المفتوح كطاقة مقبرة مهجورة.

في المقهى المفتوحة على الميدان الواسع، والتـي تظـل ساهرة طول الليل، جلسنا على منضدة، طلبنا قهوة تعين على السهر، وتقاوم النوم الذي بدأ يتسرب، أمسكت بكفها: كنـت أود أن.. قالت: وأنا.

ولا أدري إن كانت عرفت قصدي، فأنا كنت أمني نفسـي بليلة ينفتح فيها القلب، ويقول لها كل ما طواه تحـت لسـانه المتلعثم، وكنت أريد أن أقول لها كلام العشاق المعتاد، لقـد أحببتك من أول نظرة، جرحتني عيونك، وحين عرفتك قلت هي الفتاة الممنوحة لي من السماء، سـأدفن أحلامـي فـي صدرك، وأطوي في صدري أحلامك، وإنني أرى في عينيك مدينتي البهيجة بأضوائها، وطيرهـا المحلـق فـي سـماء لا تعرف الغيم، ولا تعرف المطر، صـحو مقـيم وأبـدي، وشمس رحيمة لا تغرب، نهار خالد.

وفي اللحظة التي أردت تأمل عينيهـا لأتشـجع وأقـول، رأيته على المنضدة البعيدة، قابعا تحت مصبحها الذي ينـز ضوءا بلون السل. كان يهرش جنبه بيـد مقشـوطة الجلـد،

ويبدو كأنه مشغول عنا، ثم رفع لـي عينـه فجـأة، فارتـد بصري، وماتت الكلمات في حلقي.

وكنت أريد أن أقول له: لم نعد بحاجة إليك.. فنحن فـي ونس الناس والمصابيح. ولكنه واصل الهرش، وواصل بحلقة كمن يقول: لقد استعنتما بي، وأنا لا أتخلى بسهولة.

قالت: القهوة لم تفعل شيئا.. والنوم غلبني.

قلت: اقتربي مني، ونامي على كتفي.

ارتاح رأسها على كتفي، وأملت برأسي، وجعلـت الخـد على الخد، ويدها كانت تحت المنضدة في يدي، قلـت فـي أذنها: أحبك.

وحركت شفتيها بخدر هو مزيج من خدر النـوم والحـب الهادئ، وكأنها تردد كلمتي، وغفونا.. كان نوما جميلا خاليا من الأحلام والكوابيس، قامت تفرك عينيها وترجع شـعرها إلى الوراء، وأنا بربشت بجفوني، وهالني أن النهـار كـان يحبو في الميدان، يحاول أن يشب على الجدران العالية، ولما نظرت إلى المنضدة البعيدة وجدتها فارغة، والكرسي كـان مائلا على طرفها، ولكننا لم نسمع شقشقة العصـافير، فقـط رأينا صحوة مدينة كبيرة، تدور فـي شـوارعها سـيارات

مضببة الزجاج، وعربات تجرها الخيل، عليها أقفاص الفاكهة والخضار، وجنود يجرون حول اسطوانة الميـدان، وكـان صوت أحذيتهم الثقيلة، يسمع من موضعنا.

وسوسة

أبي هناك في الزرع مع رجالة، وأنا هنا على الحصـير مربعا أمام طبق الجـبن والفلفـل المهـروس، وهـي فـي المرحاض تطلق ضراطها الذي يقلب المعدة.

وأطل الشيطان الذي يسكن الصدور، وهمس في أذنـي: هذه فرصتك التي لن تتكرر.. فأرحت يـدي إلـى جنبـي، وشعرت بالعرق على جبهتي، وقلت: لا.. أنا خائف.

وتذكرت أمي التي تعيش وحدها هناك، ورأيتهـا وهـي قائمة في ظلمة الفجر، تختم صلاتها، وتشكو إلى ربها قلـة حيلتها.

ورأيتها وهي تدعو الشيخ، الذي قعد في الصالة، أمامـه الكتاب الأصفر القديم واضعا بين صفحاته منديل أبي، ويردد بلا انقطاع التراتيل الغامضة التي تزلزل القلوب، وتستحضر الجن المختفي في جدران البيت، ينهي تراتيله بعـد غيـاب طويل، وراء عين مغمضة لا ترى دنيانا، وتـرى العـوالم المجهولة التي يسكنها الجن القادر على نقل الرجل من مكانه حتى لو كان في آخر الدنيا، ويغمس الشيخ قصبته في الحبر

الأحمر، ليخربش كلاما مهوشا على الورقة الصغيرة، ومـن حقيبة الجلد المهترئة يخرج الخرق التي يلفهـا علـى هيئـة حواية، وأرى أمي وهي تحفر لها تحت عتبة الباب، حتى إذا مر أبي من فوقها، فلا يعود إلى امرأته القديمة أبدا، ويظـل معنا في دارنا، يرعانا، ويحافظ على عاداته التي تحيي الدار، صحوه المبكر إلى الجامع، طبق القشدة واللبن وبراد الشاي، وصوت القرآن يتردد من المذياع الموضوع علـى أرضـية الشباك الذي يطل منه برأسه، ليصدر أوامره إلـى رجالـه الواقفين في الشارع، يجمعون حبل البقر والجاموس، ونعيـر الجاموس، وجعجة الجمل، تأتي من قضبان الشباك إلينا، نحن النائمين في الحجرة الداخلية، واستيقاظنا، واجتماعنا حولـه، وسؤاله الصارم عن صلاة الصبح، ونمدد أمامه – أنا وأخي – حصيرة الصلاة، ونصلي متململين كارهين للماء البـارد، صلاة خضوع للأب الجالس بقميصـه الأبـيض وصـداره وعمامته المحبوكة على رأسه الصغير.

وخرج الصوت مرة أخرى، وفح في أذني: هذه فرصـتك التي لن تتكرر.

قلت: أنا خائف.

وكانت هي في المرحاض، تحادثني من الـداخل: هـات رغيفين من المشنة.

وأرد عليهـا: جبـت عـيش "ملـدن" قالـت: أسـناني لا تحتمله.

قلت لها: أبلله بالماء.

وقمت بفرائص سائبة، أتحـرك نحـو الحنفيـة الزنـك الموضوعة على قنطاس صغير، بحجرتها، ولفحتني نسـمة باردة هبت من الجرن عبر سلك الشـباك وكانـت الحجـرة نظيفة ومرتبة، والناموسية مرفوعة، ومعقودة في منتصـف السرير كنجفة، وتذكرت تلك الليلة.

كان جمع القطن، وتأخرت هنا مع الرجال، لأرى العمـل الليلي، أكوام بيضاء هائلة، وأكياس جديدة بها رائحة الجوت، يقف الرجل بداخلها، ويشد حواف الكيس، ويدك رجليه بقوة، بينما الآخر يرفع القطن من الأكوام ليضعه تحت القـدمين، وأبي بقميصه الأبيض، وصداره اللامع، يتحرك هنا وهناك، يجس بإصبعه الأكياس المدكوكة، ويأمر بمزيد من الحشـو، ولما انتهى العمل نام الرجال في حجرة الفرن، وصحبني أبي

لأنام معه في حجرته، فأدخلني في كيس جديد، وقـال: إنـه يحميك من الناموس.

وتمددت إلى جوار هذه الحنفية، وصعد هو مع زوجـه، وانسدلت عليهما الناموسية، ولم أستطع أن أمنع نفسـي مـن الشعور بالخيانة، ولم ينغلق لي جفن، حتى سقطت الضفدعة الكبيرة الباردة على وجهـي، فصـرخت بـأعلى صـوت، وجاءتني شخطته القوية من داخل الناموسية: نام نامت عليك حيطة، وتردد صوتها اللاذع: دلع عيال.

ولم أنم حتى استيقظ أبي قبل أذان الفجر ورأيت عريه في الطشت وسط الحجرة، وهي جالسة وراءه تدعك له ظهـره بالليفة والصابون، ويتردد فيما بينهما حوار خافت.

انحنيت على الحنفية، وفتحت صنبورها فـوق الأرغفـة الجافة، ولففتها في الفوطة المعلقة على المسـمار، وعـدت لأضع الأرغفة فوق الحصير إلى جوار الأطباق.

وسمعتها تسأل من الداخل وهي تطلق هواءهـا المكتـوم فيخرج رفيقا وممطوطا في صوت لا نهاية لـه: خـلاص؟ قلت: خلاص.

وتردد الصوت مرة أخرى بلهفة أشد: لا تضيع فرصتك.. هناك الرشاشة أنت تعرف مكانها.

وامتدت يدي إلى قطعة الجبن، وخرجت بها إلى الجـرن، ورأيت أبي هناك وسط الزرع رافعـا الشمسـية البيضـاء الزاهية، وأمامه الرجال في الصفوف والزهور المحنية تسير أمامه في حركة موحدة، ورفعت الباب الخشبي القديم لمخزن التبن، وطنت في أذني نحلة هاربـة مـن الخليـة القريبـة، هششتها بعيدا عن وجه، وخطوات فوق العتبة، بالقرب مـن كومة التبن، وجدت الرشاشة نائمة بلونها الأخضر الكـالح، نظرت ورائي، فلم أر غير الدار المقابلـة مغلقـة النوافـذ، وشجر الكافور كابسا على سطحها، في نومة كسلانة، وفتحت البزبور، فدفع السائل الأبيض في خط نحيل، وصفر السـائل المحبوس عند خروجه من الثقب الضيق، فاضطربت يـدي لحظة، وأغلقت المحبس من جديد، وخفت أن يرى أحدهم هذا السائل المدلوق على التبن، فحركت قدمي، ونثرت التبن فـي كل اتجاه لأخفى الأثر وعدت.

وكانت هي ما تزال بالمرحاض تنزح المـاء، وسـمعت طرقاتها المنتظمة، وهي تنقل الماء من الإناء إلى موضـعها

الملوث، فعجلت بإعادة القطعة مـرة أخـرى فـي الطبـق، ومسحت كفى في الخرقة القديمة الملقاة في الركن، وربعـت رجلي أمام الأطباق، وقلت ستجلس هي في هـذه الناحيـة، فدورت الطبق، حتى تصير قطعة الجبن التـي بللتهـا مـن الرشاشة أمامها، وانتظرت، وخرجت هي تجفف الماء الـذي يقطر من أصابعها في جوانب الجلباب.

وسألت: أنت ما كلتش ليه: فقلت: أنا منتظرك.

وجلست أمام القطعة بالضبط، وقالت: طبخـت للرجالـة، ووفرت الباقي لعشاء أبيك.

وقلت: أي لقمة.

ولفت الطبق حتى جعلت قطعة الجبن المرشوشة أمـامي، وقالت: كل.. ونظرت إلي نظرة أفزعتني، ووقفت اللقمة في حلقي، قالت: كل.. ورفعتْ قطعة الجبن إلى فمي، ودسـتها بالقوة، وهي تصرخ في وجهي: كل..

صدر للمؤلف:

١- الضحى العالي – مجموعة قصصية ١٩٨٥ – دار شهدي

٢- عكس الريح – مجموعة قصصية ١٩٨٧ – هيئة الكتاب

٣- خبر الصغار – مجموعة قصصية ١٩٨٨ – الفتى العربي

٤- عطش الصبار – مجموعة قصصية ١٩٩٣ – دار الهلال

تحت الطبع:

- ظلال النار – قصص قصيرة
- الجزيرة البيضاء – رواية